

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع



محاضرات في مقياس:

سوسيولوجيا الحياة اليومية

موجهة إلى طلبة السنة الثالثة ليسانس علم الاجتماع

إعداد: د. فريد بوبيش

السنة الجامعية

2026/2025

المحاضرة الأولى/ مدخل إلى سوسيولوجيا الحياة اليومية

أولاً/ ما هي "الحياة اليومية"؟

قد يبدو تعريف "الحياة اليومية" (Everyday Life) أمراً سهلاً، لكنه في الواقع مفهوم معقد ومتعدد الأوجه. يمكن تعريفها بأنها مجموع الأنشطة، والطقوس، والتفاعلات التي يقوم بها الأفراد بشكل متكرر ومستمر في سياقاتهم الاجتماعية المعتادة. إنها في جوهرها كل ما يُشكّل يومنا العادي، من الأنشطة الروتينية، والتفاعلات العابرة، والتجارب المتكررة التي تشكل نسيج وجودنا اليومي. إنها لحظات الاستيقاظ والذهاب إلى العمل أو الجامعة، والتواصل مع الزملاء والأصدقاء، والتفاعل مع البائع في المتجر، وتناول وجبة الطعام، أو مجرد التفكير في يومك. من هذا المنظور، تُفهم الحياة اليومية على أنها مختلف أنماط التفاعل الاجتماعي التي يعيشها الفرد خلال يومه، وتتيح له بناء تصوراتهِ ومعانيهِ الخاصة تجاه المواقف والأفراد والأفكار.

وعموماً، تتميز الحياة اليومية بخصائص رئيسية أهمها:

* **التكرار والروتين (Repetition and Routine):** غالبية أفعالنا اليومية روتينية ومتكررة، مما يُعطينا شعوراً بالأمان والاستقرار.

* **الشمولية والانتشار الواسع (Pervasiveness):** الحياة اليومية تُغطي كل جانب من جوانب الوجود الإنساني، من العائلة والعمل إلى الاقتصاد والسياسة.. الخ، أي أنها تشمل عالم الحياة ككل.

* **العالم المُسَلَّم به (The taken-for-granted world):** نحن لا نفكر بوعي في معظم ما نفعله في حياتنا اليومية. لأننا نفترض أن العالم يعمل بطريقة معينة، وأن الآخرين سيتصرفون بطرق يمكن التنبؤ بها. فنحن نعيش معظم حياتنا دون التساؤل عن سبب سير الأمور على هذا النحو. لأننا نفترض أن الآخرين سيفهمونا عندما نتحدث، وأن القواعد الاجتماعية الأساسية ستُتبع. هذا الافتراض هو ما يسمح للمجتمع بالعمل بسلاسة.

ثانياً/ لماذا ندرس الحياة اليومية في علم الاجتماع؟

يُعد مفهوم "الحياة اليومية" مفهوماً مركزياً في علم الاجتماع، إذ يُمثل إطاراً لدراسة الأنشطة والأفكار والمشاعر التي يمارسها الأفراد بشكل روتيني ومتكرر، والتي تتسم بالطابع المألوف (mundane)، والروتيني (routine)، والطبيعي (natural)، والاعتيادي (habitual)، إنها بمثابة السجادة المنسوجة من التجارب التي يولدها العيش في "عالم الحياة" (lifeworld)، وهي السياق الذي تتشابك فيه الاهتمامات الشخصية مع النظام الاجتماعي العام.

قد يتساءل البعض عن أهمية دراسة ما يبدو عادياً. إن الإجابة تكمن في أن علم الاجتماع، في جوهره، يهدف إلى فهم الظواهر الاجتماعية، وإذا أردنا فهم المجتمع حقاً، يجب أن ننظر إلى كيف يتم إنتاجه وإعادة إنتاجه يومياً. حيث يرى علماء الاجتماع أن دراسة الحياة اليومية تكشف عن كيفية بناء المعنى الاجتماعي، وتشكيل الهويات، وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي من خلال التفاصيل الروتينية الصغيرة والتفاعلات البسيطة التي غالباً ما تبدو عادية وبديهية لكنها تحمل دلالات عميقة حول البنية الاجتماعية والثقافة والهوية. لذلك تهتم سوسيولوجيا الحياة اليومية بكشف المعاني الكامنة خلف الأنشطة، والتفاعلات، والممارسات الروتينية التي يقوم بها الأفراد والجماعات بشكل متكرر في سياقهم الاجتماعي والثقافي من خلال تفاصيل العيش اليومي. إن

دراسة الحياة اليومية ليست مجرد تدقيق في التفاصيل، بل هي مدخل أساسي لفهم الديناميكيات الاجتماعية المعقدة، وذلك لعدة أسباب جوهرية أهمها:

1/ ربط الفرد بالمجتمع: تُقدّم سوسيولوجيا الحياة اليومية منظوراً تحليلياً يرسخ فكرة أساسية وهي أن الفرد والمجتمع كيانان لا يمكن فصلهما، وتكشف كيف أن السلوك الإنساني هو نتاج التفاعل الديالكتيكي بين الذات والمجتمع. فقرارات الأفراد الشخصية، التي قد تبدو مستقلة تماماً، لا تتشكل في فراغ، بل تتأثر بشكل مباشر بالاتجاهات الثقافية، والقيم، والمعتقدات السائدة في المجتمع والاقتصاد والسياسة والتعليم.. الخ. فالحياة اليومية تتمثل نقطة التقاء بين البنى الاجتماعية الكبرى وتجارب الفرد. ومن شأن الدراسة السوسيولوجية للحياة اليومية أن تُظهر لنا كيف أن هذه البنى تُشكّل حياتنا، وكيف أن أفعالنا اليومية تُعيد إنتاج هذه البنى.

2/ الكشف عن "المُسلّم به": يعيش الأفراد معظم حياتهم في عالم يُعد "مُسلّمًا به" (the taken-for-granted world)، وهو عالم من القواعد والتوقعات غير المكتوبة التي تُنظم تفاعلاتهم دون وعي منهم. ودراسة الحياة اليومية تمكّن عالم الاجتماع من النظر إلى هذا العالم بعيون جديدة، كما لو كان ثقافة غريبة (exotic foreign culture)، مما يتيح الكشف عن هذه القواعد وفهمها بعمق. هذه العملية ضرورية لأنها تترجم ما هو ضمني (implicit) إلى ما هو صريح (explicit) وقابل للتحليل.

3/ تنمية "الخيال السوسيولوجي": تُساهم سوسيولوجيا الحياة اليومية في تطوير الخيال السوسيولوجي (Sociological Imagination)، وهو القدرة على إدراك وفهم العلاقة الجدلية والتداخل بين التجربة الشخصية للفرد (السيرة الذاتية) والقوى الاجتماعية والتاريخية الأوسع (التاريخ والبنية الاجتماعية). على سبيل المثال، يمكن تحليل مشكلة فردية كالبطالة أو التشرد ليس فقط كفشل شخصي، بل كنتيجة لعوامل اجتماعية أوسع مثل الأزمات الاقتصادية، أو السياسية، أو أي خلل في البنية الاجتماعية والهيكلي التاريخي للمجتمع. ويتيح هذا المنظور فهم كيف أن التجارب الفردية هي انعكاس للبنى الاجتماعية التي يعمل الأفراد ضمنها.

4/ الرابط بين البنى الكلية والصغرى للمجتمع (الماكرو والميكرو): لفترة طويلة، انقسم علم الاجتماع بين دراسة البنى الكلية (macro structures) مثل الطبقات الاجتماعية، والدولة، والاقتصاد، من جهة، ودراسة التفاعلات المجهرية (micro interactions) بين الأفراد من جهة أخرى. بينما سوسيولوجيا الحياة اليومية تعمل كجسر بين هذين المستويين، فهي تظهر كيف أن البنى الاجتماعية الكبرى ليست كيانات مجردة، بل يتم إنتاجها وإعادة إنتاجها باستمرار من خلال أفعالنا وتفاعلاتنا اليومية. على سبيل المثال، التفاوت الاقتصادي ليس مجرد رقم إحصائي؛ بل هو تجربة معاشة يومية من قبل الأفراد في أوقات التسوق، أو البحث عن عمل، أو حتى في اختيار وسائل الترفيه.

ثالثاً/ أصول سوسيولوجيا الحياة اليومية وتطورها:

لم تظهر سوسيولوجيا الحياة اليومية فجأة، بل كانت نتيجة لتحولات فكرية عميقة في علم الاجتماع، كانت بمثابة خروج عن هيمنة النظريات الكلاسيكية التي ركزت على البنى الاجتماعية الكبرى. حيث كان علم الاجتماع الكلاسيكي قائماً على دراسة المؤسسات الاجتماعية الكبرى (مثل الدين، والاقتصاد، والسياسة.. الخ)، وكان الهدف منه هو فهم المجتمع ككل، كنظام كبير يعمل وفق قوانين وقواعد محددة.

حيث انشغل مؤسسو علم الاجتماع الأوائل بالبنى الاجتماعية الكبرى، مثل الدولة، والمجتمع الصناعي، والمؤسسات الرسمية كالدين والتعليم. وكان علماء اجتماع مثل إميل دوركهايم (Émile Durkheim) يعتبر المجتمع كيان يتجاوز مجموع الأفراد

الذين يشكلونه، ويملك "حقيقة خاصة به"، ويُركز على "الحقائق الاجتماعية" (Social Facts) كقواعد، وقيم، وأعراف، وقوانين موجودة خارج الأفراد وتمارس عليهم قوة قهرية (coercive)، وكان دوركهايم مهتماً بالتحويلات الكبرى، كالانتقال من التضامن الميكانيكي إلى التضامن العضوي، مما يجعل عمله مؤسساتياً في جوهره. في هذا المنظور البنوي-الوظيفي (-Structural Functionalist)، يُنظر إلى المؤسسات الاجتماعية على أنها أجزاء مترابطة تعمل معاً للحفاظ على الاستقرار والنظام الاجتماعي، كما تعمل أعضاء الجسد معاً للحفاظ على الكائن الحي.

كما نجد أيضاً كارل ماركس (Karl Marx) يُركز على كيفية تأثير النظام الاقتصادي على الوعي الاجتماعي والصراع الطبقي، حيث تبنى منظوراً ماكروسوسولوجياً بامتياز، إذ لا يركز على الفرد كفاعل مستقل، بل على البنى الكبرى للمجتمع، وعلى رأسها البنية الاقتصادية، ويرى أن هذه البنية هي الأساس الذي يحدد كل البنى الأخرى.

استمر هذا الاتجاه مع تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) في منتصف القرن العشرين، حيث طور "النظرية البنوية الوظيفية" (Structural Functionalism)، التي نظرت إلى المجتمع كنظام معقد يتكون من أجزاء مترابطة (المؤسسات الاجتماعية)، وكل جزء له وظيفة معينة للحفاظ على استقرار النظام. على الرغم من أهميتها، فإن نظرية بارسونز أهملت تقريباً دور الفرد في صنع الواقع. ومن خلال نظرية "الفعل" (action theory)، ينظر بارسونز إلى "النسق الاجتماعي" (Social System) على أنه شبكة من التفاعلات بين الفاعلين (actors)، لكنه في الوقت نفسه نظر إلى الفاعل ليس كفرد مستقل، بل كـ"حزمة من المكانات والأدوار" (a bundle of statuses and roles).

ومع ذلك كان هناك تحول جذري في علم الاجتماع بدأ يتنامى تدريجياً منذ عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، بالتركيز على "التفاعل الاجتماعي" على النطاق الصغير (micro-level). هذا التحول كان بمثابة رد فعل على هيمنة النظريات الكلاسيكية السابقة التي كانت تنظر إلى الفرد كناتج حتمي للبنى الاجتماعية، دون إعطاء اعتبار لدوره الفاعل والمبدع. فبدأ بعض علماء الاجتماع في الخروج من الدائرة المؤسسية الكلاسيكية، مُستلهمين أفكاراً من عدد من التيارات الفكرية والفلسفية، فسوسولوجيا الحياة اليومية ليست مجرد فكرة واحدة، بل هي تقاطع للعديد من التيارات الفكرية التي تطورت على مر السنين، وأبرزها:

* **تأثير التيار الفينومينولوجي:** وضع الفيلسوف إدموند هوسرل (Edmund Husserl) الأسس الفكرية لهذا التيار الفلسفي الذي يُركز على "عالم الحياة" (lifeworld) كعالم مُعاش (lived) من الخبرات والتجارب المباشرة. قام عالم الاجتماع ألفريد شوتز (Alfred Schutz) بنقل هذه الأفكار من الفلسفة إلى علم الاجتماع، مؤسساً بذلك الفينومينولوجيا الاجتماعية (Social Phenomenology). لم يكن هدف شوتز هو البحث عن اليقين المطلق كما فعل هوسرل، بل فهم كيفية بناء الأفراد للواقع الاجتماعي في حياتهم اليومية، حيث ركز على فكرة "عالم الحياة" (lifeworld) - وهو عالم التجارب المشتركة والمسلم بها الذي نعيشه، مؤكداً بأن الفرد لا يواجه المجتمع كبنية صلبة ومحددة سلفاً، بل كتيار من المعاني الذاتية (subjective meanings) التي يفسرها باستمرار من خلال الأنماط (typifications) والمعرفة المشتركة (shared knowledge).

ويُعدّ عمل شوتز بمثابة حجر الزاوية لسوسولوجيا الحياة اليومية؛ لأنه غيّر بؤرة التحليل السوسولوجي من البنى الكبرى إلى عالم التجارب والمعاني اليومية. فمن خلال تركيزه على أن الواقع الاجتماعي ليس سوى نتاج للتفاعلات الرمزية والتأويل المستمر الذي يقوم به الأفراد، أرسى شوتز أسساً متينة لدراسة كيف أن الأفراد، في تفاعلاتهم البسيطة والروتينية، يساهمون بشكل فعال في بناء الواقع الذي يعيشون فيه وإعادة إنتاجه. هذه الرؤية قدّمت بديلاً جوهرياً للتحليلات البنوية التي كانت تهيم على علم

الاجتماع، حيث أثبت أن الفرد ليس مجرد نتاج سلبي للمجتمع، بل هو فاعل (actor) يسعى بشكل دائم لتنظيم عالمه الاجتماعي عبر المعرفة المتراكمة والمشاركة.

بناءً على هذه الأسس، أكمل كل من بيتر بيرغر (Peter Berger) وتوماس لوكمان (Thomas Luckmann) المسيرة في كتابهما المؤثر "البناء الاجتماعي للواقع" (The Social Construction of Reality). حيث قاما بتطوير نظرية متكاملة حول البنائية الاجتماعية (Social Constructionism)، والتي هي في جوهرها تطبيق عملي للمفاهيم الفينومينولوجية. إذ يرى بيرغر ولوكمان أن الواقع الاجتماعي يُبنى في ثلاث مراحل متداخلة: الخارجية (externalization)، حيث يخلق الأفراد ظواهر اجتماعية؛ والموضوعية (objectivation)، حيث تبدو هذه الظواهر وكأنها حقيقة مستقلة وموضوعية؛ وأخيراً الداخلية (internalization)، حيث يتعلم الفرد هذا الواقع "الموضوعي" كجزء من حياته. وبهذا التحليل، أسهما بشكل حاسم في ترسيخ فكرة أن المجتمع ليس شيئاً نُولد فيه، بل هو شيء نقوم ببنائه باستمرار عبر تفاعلاتنا اليومية.

* **تأثير التيار الإثنوميثودولوجي:** تُعنى الإثنوميثودولوجيا (Ethnomethodology) بدراسة الطرق والأساليب (the methods) التي يستخدمها الناس العاديون (the ethno) لخلق وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي في تفاعلاتهم اليومية من هذا المنطلق ساهم هذا التيار في إرساء أسس سوسيولوجيا الحياة اليومية من خلال تحويل تركيز التحليل السوسيولوجي من البنى الاجتماعية الكبرى إلى التفاعلات اليومية نفسها. حيث أظهر "هارولد غارفinkel" (Harold Garfinkel)، مؤسس هذا التيار، أن النظام الاجتماعي ليس حقيقة موضوعية، بل هو نتيجة عمليات بناء مستمرة يقوم بها الأفراد. يقوم هذا التيار على فكرة أساسية هي أن الأفراد ليسوا مجرد منتجات للبنية الاجتماعية، بل هم فاعلون نشطون يستخدمون طرقاً غير واعية لإضفاء معنى على العالم الاجتماعي وجعله قابلاً للفهم، وهذه الطرق والأساليب غالباً ما تكون بديهية ومُسلم بها. ومن خلال "تجارب الخرق" (breaching experiments) للقواعد الاجتماعية، أظهر غارفinkel كيف أن النظام الاجتماعي يعتمد بشكل كبير على افتراضاتنا غير المعلنة وقواعدنا الضمنية، فعندما يتم كسر هذه القواعد، يظهر مدى اعتمادنا عليها لجعل حياتنا اليومية طبيعية وقابلة للفهم. وبذلك يقدم هذا التيار منظوراً فريداً يركز على التفاعلات اليومية كبادرة لتحليل كيفية بناء النظام الاجتماعي، بدلاً من النظر إليه كبنية جامدة ومحددة سلفاً. وبالتالي ساهم في ترسيخ فكرة أن الحياة اليومية ليست مجرد مسرح لأحداث أكبر، بل هي موقع البناء الفعلي للنظام الاجتماعي، حيث يتفاعل الأفراد باستمرار لإنتاج الواقع الذي يعيشون فيه.

* **تأثير التيار النقدي (مدرسة فرانكفورت):** ساهم التيار النقدي، وتحديداً من خلال مدرسة فرانكفورت، في ظهور سوسيولوجيا الحياة اليومية من خلال تقديم تحليل نقدي لكيفية تشكيل القوى الاجتماعية الكبرى -خاصةً صناعة الثقافة- للوعي الفردي وتنميط الحياة اليومية. بينما ركزت التيارات الأخرى (مثل الفينومينولوجيا والإثنوميثودولوجيا) على كيفية بناء الأفراد للواقع الاجتماعي، انشغل مفكرو مدرسة فرانكفورت بطرح سؤال مختلف: كيف يتم تدمير قدرة الفرد على البناء النقدي للواقع؟ وذلك من خلال "صناعة الثقافة"، حيث أشار كل من "تيودور أدورنو" (Theodor Adorno) و"هيربرت ماركوز" (Herbert Marcuse) إلى أن وسائل الإعلام الجماهيرية لم تعد تقدم ثقافة حقيقية، بل أصبحت تنتج ثقافة جماهيرية موحدة تُستهلك بشكل سلبي. هذه الثقافة، المليئة بالترفيه السطحي والسلع الاستهلاكية، لا تشجع على التفكير النقدي أو التساؤل، بل تعمل على إلهاء الأفراد عن مشاكلهم الحقيقية. ومن خلال هذا الاستهلاك الثقافي يتشكل ما يُسمى بالوعي الزائف الجديد (على عكس الوعي الزائف عند ماركس (الذي كان سببه علاقات الإنتاج)، يرى مفكرو فرانكفورت أن هذا الوعي الجديد يتشكل من خلال الاستهلاك الثقافي). فالفرد يصبح مُقتنعاً بأن حياته تتحسن من خلال شراء المزيد من السلع، مما يقضي على قدرته على التمييز بين ما هو ضروري وما هو زائف.

قدم هذا المنظور النقدي بُعدًا مهمًا لسوسيولوجيا الحياة اليومية، حيث كشف أن الحياة اليومية لم تعد مجرد تفاعلات صغيرة بين الأفراد، بل أصبحت ساحة للصراع بين الإرادة الفردية و هيمنة المؤسسات الكبرى مثل الإعلام والشركات. وأظهر كيف يتم "تتميط" الأفراد: وفي هذا الصدد يوضح هربرت ماركوز في مفهومه عن "الإنسان أحادي البعد" (one-dimensional man). كيف أن الحياة اليومية، التي يهيمن عليها العمل والاستهلاك، تقمع التعددية الفكرية وتجعل الفرد منسجمًا مع النظام القائم. هذا التحليل ألقى الضوء على ضرورة دراسة كيف يمكن للحياة اليومية أن تكون أداة للقمع الاجتماعي. إذا كانت التيارات الفينومينولوجيا والإثنوميثودولوجيا قد قدمت منظورا لسوسيولوجيا الحياة اليومية يركز على العمليات البنائية في الحياة اليومية، فإن التيار النقدي يقدم منظورا مختلفا لسوسيولوجيا الحياة اليومية يركز على الآثار السلبية والتقييدية لهذه الحياة، وكيف يمكن أن تتحول من مساحة للحرية إلى أداة للهيمنة.

*تأثير التيار البراغماتي والتفاعلية الرمزية (مدرسة شيكاغو): انبعثت التفاعلية الرمزية (Symbolic Interactionism) كمنظور سوسيولوجي محوري من رحم الفلسفة البراغماتية (Pragmatism) الأمريكية. ويمثل جورج هربرت ميد (George Herbert Mead) من جامعة شيكاغو الشخصية المحورية التي جسّرت الهوة بين الفلسفتين، مطبقًا مبادئ البراغماتية -التي تؤكد على أن المعرفة لا تنشأ إلا من خلال العمل والتجربة- لفهم التفاعلات الإنسانية. من هذا المنطلق، لم ينظر ميد إلى الوعي أو "الذات" (self) ككيان بيولوجي أو فطري، بل كعملية اجتماعية تتشكل باستمرار. وقد أكد أن "الذات" لا تظهر من فراغ، بل هي نتاج التفاعل المستمر مع الآخرين، حيث يتعلم الفرد أن يرى نفسه من خلال أخذ دور "الآخر" (the other)، مما يؤدي إلى توليد ونمو الذات.

قدمت التفاعلية الرمزية إطارًا نظريًا جديدًا لتحليل المجتمع، مركزة على الحياة اليومية كساحة للتحليل السوسيولوجي. فعلى عكس التحليلات البنيوية التي تركز على المؤسسات الكبرى، ركزت التفاعلية الرمزية على الرموز (symbols) والمعاني المشتركة (shared meanings) التي يتبادلها الأفراد في تفاعلاتهم اليومية، معتبرة أن الواقع الاجتماعي ليس بنية جامدة، بل هو بناء مستمر يتفاوض حوله الأفراد من خلال تفسير الرموز. وبذلك، تُعد التفاعلات الاجتماعية هي الوحدة الأساسية لتحليل المجتمع، حيث تساهم كل محادثة أو لقاء في بناء النسيج الاجتماعي وإعادة إنتاجه.

أثر هذا المنظور على سوسيولوجيا الحياة اليومية من خلال تسليط الضوء على فاعلية الفرد، مؤكدًا أن الفرد ليس نتاجًا سلبياً للبنية الاجتماعية، بل هو فاعل (actor) يفسر العالم ويتخذ القرارات بناءً على معانيه الخاصة. هذا الفهم الجديد دفع الباحثين إلى تبني الأساليب النوعية (qualitative methods)، مثل الملاحظة بالمشاركة (participant observation) والمقابلات المتعمقة (in-depth interviews)، لفهم المعاني الذاتية التي يضيفها الأفراد على أفعالهم. وبهذا، تُعتبر التفاعلية الرمزية هي المنطلق الذي نقل التحليل السوسيولوجي من دراسة البنى الكبرى إلى استكشاف العمليات الدقيقة التي تشكل واقع الحياة اليومية.

وانطلاقًا من هذا المنظور أخذ "إرفينغ غوفمان" (Erving Goffman) دورا محوريا ومختلف عن سابقه في تطوير سوسيولوجيا الحياة اليومية، حيث نقل المنظور التفاعلي الرمزي من التركيز على بناء الذات إلى تحليل التفاعلات الاجتماعية اليومية كمسرح للعروض. حيث قدم غوفمان في كتابه "تقديم الذات في الحياة اليومية" (The Presentation of Self in Everyday Life) منظورا فريداً يُعرف بالتحليل الدرامي (dramaturgical analysis)، حيث شبه الحياة الاجتماعية بمسرح كبير (theatrical stage). في هذا المسرح، يكون الأفراد ممثلين (actors) يؤديون أدوارًا (roles) أمام جمهور (audience). يهدف كل ممثل إلى تقديم صورة معينة عن ذاته (front stage) وإخفاء جوانب أخرى (back stage) لكي يؤثر على انطباعات الآخرين

عنه. هذا المنظور ألقى الضوء على أن الحياة اليومية ليست مجرد تفاعلات عفوية، بل هي عملية مستمرة في إدارة الانطباع (impression management).

في المحاضرات القادمة، سنغوص بعمق في كل من هذه التيارات والمدارس، وسنرى كيف أنها تقدم لنا أدوات سوسيولوجية مختلفة لفهم تعقيد وثرأ الحياة اليومية. كما سنتناول مختلف إسهامات علماء الاجتماع من خارج هذه المدارس أمثال: عالم الاجتماع الألماني "جورج زيمل" (Georg Simmel) الذي كان أحد أوائل من لفت الانتباه إلى أهمية التفاعلات الصغيرة واللحظية، في مقالته الشهيرة "علم اجتماع الحواس" (Sociology of the Senses)، مؤكداً على أن النظر والتجاهل واللمس في المدينة الكبرى ليست مجرد أفعال عشوائية، بل هي أشكال أساسية من التنظيم الاجتماعي، وكان يرى أن المجتمع ليس شيئاً منفصلاً عن الأفراد، بل هو نتاج مستمر للتفاعلات التي تحدث في كل لحظة. وعالم الاجتماع الفرنسي "هنري لوفيفر" (Henri Lefebvre) الذي يعتبر بحق أحد الآباء المساهمين في هذا المجال، خاصة من خلال كتابه "نقد الحياة اليومية" (Critique of Everyday Life)، مجادلاً بأن الحياة اليومية، التي غالباً ما تُعتبر عادية وتافهة، هي في الحقيقة ساحة رئيسية للتناقضات الاجتماعية والسياسية في ظل الرأسمالية الحديثة، مؤكداً بأن الرأسمالية لا تستغل العامل في مكان العمل فقط، بل تخترق كل جوانب حياته اليومية من خلال الاستهلاك، والإلهاء، وتتميط الفضاء، وهو ما يقضي على أي وعي نقدي لدى الأفراد. هذا المنظور يجعله قريباً من النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ولكنه يختلف عنها في تركيزه على العلاقة بين الحياة اليومية والمكان. وعالمة الاجتماع المجرية "أغيس هيلر" (Agnes Heller) التي قدمت في كتابها "الحياة اليومية" (Everyday Life) تحليلاً دقيقاً للمفاهيم التي تشكل الوجود الإنساني اليومي، مركزةً على العلاقة بين الفرد والمجتمع، مرتكزةً على تحليل فريد يجمع بين الفكر الماركسي التقليدي والفلسفة الوجودية، مؤكدة بأن الحياة اليومية ليست مجرد موضوع دراسة، بل هي ساحة للصراع بين الرتبة والحرية، وبين الوعي العفوي والوعي النقدي.

المحاضرة الثانية/ الاتجاه الفينومينولوجي في سوسيولوجيا الحياة اليومية

نشأ "الاتجاه الظاهراتي" في علم الاجتماع من خلال أعمال عالم الاجتماع النمساوي "ألفريد شوتز" (Alfred Schütz) (1899-1959) في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين. تأثر شوتز في أعماله بشكل كبير بكتابات ماكس فيبر. ورغم إعجابه بأعمال فيبر، إلا أنه شعر بوجود خلل كبير فيها، إذ أغفلت المعنى الذي ينسبه الأفراد إلى أفعالهم. ووجد شوتز طريقة لمعالجة هذا الخلل الملحوظ لدى "فيبر" من خلال استعارة رؤى الفيلسوف الظاهراتي "إدموند هوسرل" (Edmund Husserl) (1859-1938)، الذي يركز على مجال البنى الشكلية للوعي. فنشأت نظرية شوتز كمزيج من سوسيولوجيا فيبر وفهم هوسرل للوعي. وبذلك ولد علم الاجتماع الظاهراتي (Phenomenological Sociology) كأحد الاتجاهات النظرية والمنهجية في علم الاجتماع الذي يركز على فهم كيفية إدراك الأفراد وتفسيرهم للعالم الاجتماعي من حولهم.

ويعتبر ألفريد شوتز المؤسس الرئيسي لهذا الاتجاه في علم الاجتماع، حيث حاول تطبيق أفكار هوسرل الفلسفية على علم الاجتماع، وركز على كيفية بناء الأفراد للواقع الاجتماعي من خلال تفاعلاتهم اليومية. في عام 1932، أثمرت جهود شوتز عن أول كتاب منشور له بعنوان "البنية ذات المعنى للعالم الاجتماعي" (Der sinnhafte Aufbau der sozialen Welt)، والذي نُشر بالإنجليزية تحت عنوان "ظاهراتية العالم الاجتماعي" (The Phenomenology of the Social World). يرى شوتز بأن العلوم

الاجتماعية يجب أن تركز على تحليل ما أسماه هوسرل "الموقف الطبيعي" (The Natural Attitude)، أي الافتراضات التي تُشكل التصورات والأفعال اليومية في العالم الاجتماعي.

يُشير الموقف الطبيعي إلى الموقف السليم الذي نتخذه تجاه العالم في حياتنا اليومية. وفي هذا الموقف، نقبل بوجود العالم، ونشاركه مع الآخرين. ويعمل هذا الموقف وفقاً لمجموعة من الافتراضات المسلم بها، فنحن لا نتقلسف بشأن الواقع؛ بل نتصرف بناءً على افتراض أن معرفتنا وإدراكاتنا دقيقة بما يكفي لأغراض عملية.

يرى ألفريد شوتز أنه ولكي يتسنى لعلم الاجتماع فهم الفعل البشري فهماً حقيقياً، يجب أن يعمل على تحليل فينومينولوجيا الموقف الطبيعي، بمعنى الكشف عن بنية الافتراضات التي يستخدمها الناس لبناء عالمهم المنظم والمفهوم، بما أن سلوكيات الناس اليومية تتبنى على هذه الافتراضات غير المشكوك فيها، أي تحليل هذه الافتراضات ذاتها لفهم المعاني الذاتية التي يربطها الناس بأفعالهم.

سعى ألفريد شوتز إلى البناء على الإطار المنهجي لـ"ماكس فيبر"، متفقاً معه على أن العلوم الاجتماعية يجب أن تعتمد على الأداة التحليلية "الأنماط المثالية" (Ideal Types) لتبسيط وقياس الحقائق الاجتماعية المعقدة. لكن مع قبوله بذلك، رأى شوتز أن تقنية "الأقواس" (الإبوخية) (Epoché)، المستمدة من ظاهراتية هوسرل وسيلة ضرورية لتجاوز حدود تحليل الأنماط المثالية. ذلك أن الأنماط المثالية تُخاطر بفرض تصنيفات الباحث الموضوعية والنظرية على الواقع الذاتي والفوضوي للفاعلين المدروسين؛ فهي بنى خارجية، وليست تجارب داخلية. وتتضمن تقنية الأقواس (الإبوخية) أن يُعلق الباحث مؤقتاً أو "يضع بين قوسين" اعتقاده الخاص بوجود العالم الحقيقي والحقيقة الموضوعية للظاهرة المدروسة، والهدف من ذلك هو تتحية الموقف الطبيعي جانباً - التوقف عن اعتبار العالم أمراً مسلماً به - حتى يتمكن الباحث من التركيز بشكل بحت على كيفية ظهور الظاهرة في وعي الفاعل والمعنى الذي يُضفيه عليها.

أولاً/ المفاهيم الأساسية التي قدمها "شوتز" في سوسيولوجيا الحياة اليومية:

تُشكل المفاهيم التي صاغها "ألفريد شوتز" حجر الزاوية للمنظور الفينومينولوجي في سوسيولوجيا الحياة اليومية، إذ توفر الأدوات اللازمة لفهم الكيفية التي يبني بها الأفراد الواقع الاجتماعي المشترك ويتحركون داخله. وفيما يلي أبرز هذه المفاهيم، مع التركيز على أهميتها في تحليل التجربة اليومية.

1/ الذاتية المشتركة أو توافق الذات (Intersubjectivity): يُعد هذا المفهوم المرتكز الذي يربط بين الوعي الفردي والعالم الاجتماعي، ويُشير إلى عملية مشاركة أو اتفاق بين شخصين أو أكثر حول معنى مشترك أو تجربة ما، بحيث يصبح هذا المعنى أو التصور فهماً مشتركاً لديهم. فالذاتية المشتركة هي الافتراض الذي يحمله الأفراد بأنهم يعيشون في نفس العالم المشترك وأنهم قادرون على فهم معاني وخبرات بعضهم البعض. إنها إيماننا الضمني بأن العالم الذي أراه هو نفسه العالم الذي تراه أنت، مع إمكانية التبادل النظري للمواقع. إنها القدرة على مشاركة الفهم والمعنى مع الآخرين في مكان وزمان محددين.

رفض شوتز المعنى الفلسفي لهوسرل للذاتية المشتركة كـ "مُعطى أنطولوجي" "datum" (أي بأنه حقيقة وجودية أساسية أي تتعلق بالأنطولوجيا أو طبيعة الوجود) يتم افتراضها مسبقاً كجزء من بنية الوعي البشري). وبصفته عالماً اجتماعياً فينومينولوجياً، كان شوتز مهتماً بالكيفية التي تُبنى بها الذاتية المشتركة وتُعاش في العالم المُعاش (Lebenswelt)، وليس في

الوعي المجرد. لذلك، رأى أن الإيمان بالذاتية المشتركة (أي الإيمان بأننا نعيش في عالم مشترك ومفهوم متبادل) هي إنجاز عملي وليس مجرد فرضية فلسفية، فهي عملية بناء تُنجز عبر آليتين عمليتين يستخدمهما الأفراد في الموقف الطبيعي، وهما:

أ/ التبادلية في المنظورات: حيث يفترض الفرد أن الأفراد الآخرين لو كانوا في مكانه، سيرون العالم بنفس الطريقة التي هو يراه بها، والعكس صحيح.

ب/ أصل المعرفة الاجتماعي: حيث نفترض أن المخزون المعرفي الذي نتقاسمه هو مُتجانسٌ إلى حد كبير، وأن مفاهيمنا الأساسية عن الأشياء متطابقة بالضرورة.

هذا البناء للذاتية المشتركة في الحياة اليومية هو الذي يُحول التجارب الفردية المعزولة إلى واقع اجتماعي موضوعي نتحرك فيه. إنه ليس شيئاً موجوداً مسبقاً بشكل ميتافيزيقي، بل هو نتيجة التصميم والتثبيت المتكرر لتلك الفرضيات في كل تفاعل يومي. لذلك، فإن التركيز على أن الذاتية المشتركة كإنجازٍ دائم وعملية بناء هو ما يميز سوسيولوجيا شوتز الفينومينولوجية عن فلسفة هوسرل. وبفضل الذاتية المشتركة، لا يتعين علينا أن نشرح كل شيء من الصفر في كل لقاء. فإدراكنا بأننا "نتقاسم عالماً مُعاشاً" هو ما يسمح باستمرار التفاعلات العادية وبناء المؤسسات المشتركة كاللغة والقانون.

2/ النمذجة أو التصنيف (Typification): قدّم شوتز هذا المفهوم الذي يُشير إلى الطرق التي تُصنّف بها الآخرين والعالم من حولنا، فهي العملية التي يقوم من خلالها الأفراد بتصنيف الآخرين والمواقف. يُقدم مفهوم "النمذجة" الآلية المعرفية الأساسية التي يستخدمها الوعي لتبسيط ولفرة التعقيد الهائل للتجربة اليومية، حيث تُستخدم هذه النماذج المُبسّطة لفهم العالم الاجتماعي، وتسهيل التفاعل، وتوقع سلوكيات الآخرين، مما يوفر الوقت والجهد العقلي. فالنماذج هي بُنى ذهنية مُعمّمة ومُبسّطة يُنشئها الأفراد لوضع الأشخاص، والأشياء، والمواقف في فئات مُحددة. وتُستخدم هذه البُنى كمرجع للتنبؤ بسلوك الآخرين وتفسيره. فالعالم المُعاش غني جداً بالتفاصيل، ولا يمكننا معالجة كل فرد ككيان فريد تماماً في كل لحظة، هنا تقوم النماذج باختزال العالم المعرفي، مما يسمح لنا بالتركيز على السمات الأكثر أهمية للموقف العملي. فعندما نلتقي بشخص جديد، لا نراه كوعي فريد، بل كـ "نموذج" أو "صنف" يتمثل في "سائق الحافلة"، أو "الزميل الجديد"، أو "رجل الشرطة" .. الخ. هذا التصنيف يُزودنا بـ توقعات سلوكية جاهزة تُرشد تفاعلنا.

3/ المخزون المعرفي (Stock of Knowledge): يشير إلى المعرفة المُتراكمة التي يكتسبها الأفراد من تفاعلاتهم وخبراتهم، ويتم اعتبارها أمراً مُسلماً به. ويشمل مجموعة المعارف، والمعتقدات، والمُسلّمات، والقيم المُشتركة والمُتراكمة التي يكتسبها الفرد من خلال التنشئة الاجتماعية والتجارب الشخصية. كما يتضمن أيضاً ما يُسميه شوتز "وصفات الأفعال" (Recipes for Action)، وهي أدلة عملية للقيام بالمهام الروتينية اليومية. هذا المخزون المعرفي يعمل كإطار مرجعي، أو "مخطط" (scheme)، يساعد الأفراد على تفسير العالم وفهمه والاستجابة له. إنه ليس مجرد مجموعة من الحقائق، بل هو نظام متكامل من المعاني التي توجه الإدراك والتصرفات في المواقف اليومية. فهذا المخزون المعرفي يُشبه "خريطة" تُوجّه أفعال الأفراد وتساعدهم على تفسير العالم، وبالتالي يوفر القواعد التي تجعل الحياة اليومية مُرتبة وقابلة للفهم، ويُحرر الوعي من عبء التفسير المستمر.

إجمالاً، تُعتبر "الذاتية المشتركة" كأساس للعالم المشترك، و"النماذج" كأدوات لتبسيط الإدراك، و"المخزون المعرفي" كخزان للمعرفة العملية. وتُشكل هذه المفاهيم الثلاثة الإطار التحليلي الذي يمكّن سوسيولوجيا الحياة اليومية من الكشف عن البُنى العميقة لكيفية بناء الأفراد لواقعهم الاجتماعي وفق المنظور الفينومينولوجي لألفريد شوتز.

ثانيا/ البناء الاجتماعي للواقع (من الذاتية إلى الموضوعية في الحياة اليومية)

سار على نهج "ألفريد شوتز" عالمي الاجتماع النمساويين الأمريكيين "بيتر بيرغر" و"توماس لوكمان" (Peter Berger & Thomas Luckmann)، إذ تُمثل أعمالها تنويعاً حقيقياً للجهود الفينومينولوجية في علم الاجتماع.. ففي كتابهما الصادر عام (1966) بعنوان "البناء الاجتماعي للواقع" (The Social Construction of Reality)، قاما بتطوير مفهوم "البناء الاجتماعي للواقع" ليؤكد أن المجتمع يُبنى من خلال تفاعل البشر، حيث قاما بسد الفجوة بين التجربة الذاتية (الوعي الفردي) التي ركز عليها شوتز وبين وجود البنى والمؤسسات الاجتماعية الكبرى (مثل القانون، والاقتصاد، والدين). فقدا نظرية متكاملة تشرح كيف تُصبح المعاني الذاتية للفرد حقائق موضوعية مُلزِمة للحياة اليومية، موضحين كيف أن هذه المفاهيم والمعاني الذاتية لا تبقى حبيسة الوعي الفردي، بل تتحول عبر التاريخ إلى مؤسسات (Institutions) قاهرة وموضوعية (مثل القانون والدولة والتعليم)، والتي يُطلق عليها اسم "نظرية البناء الاجتماعي للواقع"، التي مفادها أن الواقع الاجتماعي ليس مُعطىً أو حقيقة طبيعية، بل هو عملية ديناميكية مستمرة بين الإنسان ومجتمعه وتحدث عبر الأجيال من خلال ثلاث مراحل متسلسلة تشرح كيف يتحول الإبداع الذاتي إلى حقيقة موضوعية قاهرة ومُلزِمة للجميع. وفيما يلي بيانها:

المرحلة الأولى: التجسيد الخارجي أو الظهور (Externalization):

هذه المرحلة هي جوهر الفعل الاجتماعي، وتبدأ عندما يتفاعل الأفراد مع بعضهم ويشرعون في إسقاط معانيهم وأفكارهم على العالم الخارجي من خلال أفعالهم وتعبيراتهم، أي هي تلك العملية التي يُنشئ بها البشر أشكالاً خارجية وموضوعية من تجاربهم الذاتية. وباعتبار الإنسان كائن بيولوجي غير مُكتمل النمو بشكل نهائي ومرة واحدة، إذ لا يمتلك غرائز صارمة تُملئ عليه كل أفعاله، وتوجهه بصرامة في كل موقف. لذا، يجب عليه أن يخلق نظاماً (Order) ليُوجه سلوكه في مواجهة الطبيعة والآخرين. يبدأ هذا النظام في صورة عادات (Habits) فردية. على سبيل المثال عندما يجد الفرد حلاً لمشكلة متكررة (مثل كيفية تنظيم جدول الطعام اليومي)، يُصبح هذا الحل عادة. وعندما يتفق فردان أو أكثر على أداء فعل ما بطريقة معينة، أو على تفسير ظاهرة ما بمعنى محدد، تتحول هذه العادات إلى أنماط تفاعلية مشتركة (Shared Interactional Patterns). هذه الأنماط المتكررة والمُتَبَتَّة والمُصمَّدة هي ما يُطلق عليه "بيرغر ولوكمان" التجسيد الخارجي (Externalization)، حيث يعمل الأفراد هنا على خلق العالم الاجتماعي ويُثبتونه من خلال أفعالهم.

المرحلة الثانية: الموضوعية أو التشييء (Objectivation):

تُعتبر هذه المرحلة حاسمة، ففيها تكتسب المنتجات البشرية (الأفكار، والقواعد، والأنماط) استقلالية عن الأفراد الذين خلقوها في الأصل. وتصبح هذه القواعد "حقائق موضوعية" تبدو وكأنها موجودة خارج الذات، وقاهرة لها. هذا ما يُعرف بـ التشيؤ (Reification). ويكمن سر الموضوعية هنا في التكرار والمأسسة (Institutionalization). فبمجرد أن تصبح الأنماط متكررة ومُنظمة عبر الأجيال يتم مأسستها، فتتحول إلى مؤسسات (Institutions). فالمؤسسة هي مجموعة من الحلول المقبولة والمُتراكمة لمشكلة اجتماعية معينة (مثل مشكلة إدارة السلطة، أو كيفية إدارة المال، أو كيفية تعليم الأطفال، أو تنظيم العلاقات الجنسية.. الخ). وعندما يُولد جيل جديد، يجد هذه القواعد والمؤسسات موجودة مسبقاً وسلفاً، ويتم تقديمها له على أنها "حقائق قائمة بذاتها" وبأنها "الطريقة الوحيدة والمطلقة لفعل الأشياء". في هذه المرحلة، تتسنى الأجيال الجديدة أن هذه القواعد هي في الأصل منتجات بشرية مُتفق عليها، وتُعاملها كأشياء طبيعية غير قابلة للتغيير.

المرحلة الثالثة: الاستدماج أو الاستبطان (Internalization)

في هذه المرحلة يتم استيعاب (Absorption) الواقع الموضوعي من قبل الأفراد، وخاصة الأجيال الجديدة، عبر عملية التنشئة الاجتماعية، ليُصبح هذا الواقع الموضوعي جزءاً من وعيهم وكيانهم الداخلي. في هذه المرحلة، لا يُنظر إلى الواقع المؤسسي على أنه مجرد قواعد خارجية، بل يُصبح جزءاً من هوية الفرد ومخزونه المعرفي. إذ يتعلم الفرد أن يفكر ويتصرف وفقاً لهذه القواعد بشكل تلقائي. هذا الاستيعاب هو الذي يضمن استمرارية المؤسسات. فالمؤسسات تصمد ليس فقط بفضل القوانين، بل لأن الأفراد يؤمنون بها ويعتبرونها طبيعية وصحيحة. هذه العملية تضمن التوافق بين الوعي الفردي والواقع الاجتماعي، مما يخلق عالماً داخلياً منظماً يتماشى مع العالم الخارجي المنظم.

تُظهر نظرية "البناء الاجتماعي للواقع" أن الحياة اليومية هي ساحة المعركة الحقيقية لهذه الجدلية المستمرة. فالأنماط والتفاعلات البسيطة التي تحدث يومياً هي التي تتراكم لتصبح في النهاية مؤسسات وبُنى اجتماعية كبرى. إن أهمية هذه النظرية تكمن في أنها تمنحنا أداة نقدية لفهم أن الواقع الاجتماعي ليس قدرًا محتوماً، بل إنجازاً وبناءً بشرياً. هذا الفهم هو الذي يُمكن علماء الاجتماع من نقد التشييء، وتذكير المجتمع بأن ما نعتبره "حقائق طبيعية" (كالنظام الاقتصادي، أو النظام الاجتماعي) هو في الأساس تعبير بشري قابل للتغيير والتطور. لأن الخطر الأكبر في عملية البناء الاجتماعي هو التشيؤ (Reification)، أي عندما ينسى المجتمع أن الواقع الاجتماعي هو في الأصل منتج بشري، ويبدأ في التعامل معه كأنه حقيقة طبيعية، أو كونيّة، أو إلهية لا يمكن تغييرها. فعندما يُقال إن "الرأسمالية هي الطبيعة البشرية" أو "النظام الاجتماعي هو نظام طبيعي"، فإننا نكون قد وقعنا في التشييء. نحن ننسى أن هذه الأنظمة هي اتفاقات وتصاميم خلقها البشر لحل مشاكل معينة، ونبدأ في الاعتقاد بأنها أشياء ثابتة ومصير محتوم. وهنا يظهر دور الفينومينولوجيا، من خلال الاختزال الظاهراتي (التعليق/الوضع بين قوسين) الذي يهدف إلى كسر هذا التشييء، وذلك بمطالبة عالم الاجتماع بأن يُعلّق إيمانه بـ "موضوعية" هذه الحقائق، ويطرح السؤال: كيف تم بناء هذا الواقع؟ وما هو المعنى الذاتي الذي يحمله للأفراد في تجربتهم المعاشة؟ أي أن الفينومينولوجيا في علم الاجتماع تمنحنا أداة نقدية قوية لفهم أننا لسنا مجرد نتاج للواقع، بل نحن خالقوه ومُنْتَجوه، وعلينا أن نكون واعين بهذه العملية حتى نتمكن من إعادة النظر في الواقع الاجتماعي وتغييره.

المحاضرة الثالثة/ المنظور الإثنوميثودولوجي في سوسيولوجيا الحياة اليومية

أولاً/ المنظور الإثنوميثودولوجي وجذوره الفكرية في علم الاجتماع:

في حقل علم الاجتماع تُعد الإثنوميثودولوجيا مقاربة سوسيولوجية، تقوم على دراسة الأساليب التي يستخدمها الناس لخلق نظام اجتماعي والحفاظ عليه في حياتهم اليومية. وقد صاغ هذا المصطلح عالم الاجتماع الأمريكي "هارولد غارفinkel" (Harold Garfinkel) عام 1954، وذلك أثناء دراسته وتحليله لشروط المداولات لهيئة المحلفين بالمحكمة، حينها طُرحت أمامه لأول مرة فكرة ومفهوم الإثنوميثودولوجيا حين كان مهتماً بتحليل مادة المداولات وبكيفية معرفة هيئة المحلفين لما يفعلونه خلال عملهم في هذه الهيئة. وكان اهتمامه منصباً على وصف أساليب الحس السليم التي يقدم من خلالها أعضاء هيئة المحلفين أنفسهم في غرفة المحلفين كهيئة محلفين. وبالتالي، فإن أساليبهم في: إثبات الوقائع؛ وتطوير سلاسل الأدلة؛ وتحديد موثوقية شهادة الشهود؛ وتحديد تنظيم المتحدثين في قاعة هيئة المحلفين نفسها؛ وتحديد إدانة المتهمين أو براءتهم،.. الخ. تُشكل هذه الأساليب النظام الاجتماعي

للمحلفين بالنسبة لأعضاء هيئة المحلفين، وكذلك بالنسبة للباحثين وغيرهم من المهتمين، في تلك البيئة الاجتماعية المحددة. ثم انتشر لاحقاً مفهوم الإثنوميثودولوجيا في علم الاجتماع بعد صدور كتاب "غارفينكل" بعنوان "دراسات في الإثنوميثودولوجيا" (Studies in Ethnomethodology) عام 1967. وعموماً تُركّز الإثنوميثودولوجيا على تحليل كيفية فهم الناس لعالمهم من خلال تفكيرهم العملي "السليم" في مواقف محددة وعادية، بدلاً من التركيز على البنى الاجتماعية المجردة.

وقد بدأ انتشار الإثنوميثودولوجيا كتيار سوسيولوجي خلال سنوات الستينيات من القرن الماضي انطلاقاً من جامعة كاليفورنيا عن طريق أعمال رواده، وعلى رأسهم "هارولد غارفنكل" الذي كان طالباً لدى "تالكوت بارسونز" وتخرج على يديه، وكان محور اهتمامه التنظيم الاجتماعي فقام بتأسيس الإثنوميثودولوجيا عبر تركيزه على دراسة المنهج أو الطريقة التي يستخدمها الناس في صياغة وتشكيل الحقيقة الاجتماعية في الحياة اليومية، بدلاً من النظرية المجردة التي تؤطرها النظم الكبرى. بالإضافة إلى أعمال رواد آخرين لكن بدرجة أقل من الأهمية وهم: "هارفي ساكس" (Harvey Sacks)، عالم الاجتماع الأمريكي الذي تأثر بالإثنوميثودولوجيا وكان رائداً في دراسات مُفصّلة للغاية حول كيفية استخدام الناس للغة في الحياة اليومية، ومؤسساً لمجال "تحليل المحادثة" الذي انبثق من الإثنوميثودولوجيا. و"أرون سيكوريل" (Aaron Cicourel) الباحث البارز في مجال علم الاجتماع الذي استخدم مفاهيم الإثنوميثودولوجيا في دراساته، خاصة في مجال دراسة الشرطة والجريمة والقضاء.

ويرى عدد من المتتبعين لتطور النظرية السوسيولوجية من أمثال "والتر والاس" (Walter L. Wallace) بأن الإثنوميثودولوجيا ترتبط نشأتها أو جذورها الفكرية بتحليلات كل من التفاعلية الرمزية والفينومينولوجية، ولا سيما أن هذين المنظورين قد أحدثا تطوراً كبيراً في النظرية السوسيولوجية. كما يرى عالم الاجتماع "آلفين غولدنر" (Alvin W. Gouldner) أن الإثنوميثودولوجيا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاتجاهات النقدية التي شهدها علم الاجتماع في الستينيات من القرن العشرين، وقد ظهرت كأحد البدائل النظرية التي تتخذ موقفاً نقدياً من النظريات السوسيولوجية التقليدية وخاصة من الاتجاه الوضعي في علم الاجتماع. إلا أنها كمنظور سوسيولوجي تبنت وجهة نظر مختلفة عن الواقع أو العالم الاجتماعي، مما أدى إلى اعتبارها أنها أحد البدائل النظرية المعاصرة المطروحة في علم الاجتماع الغربي. ومن داخل هذا الإطار المتأثر بالتفاعلية الرمزية والفينومينولوجية والاتجاهات النقدية، صاغ "جارفينكل" مفهومه عن المنظور الإثنوميثودولوجي، واستطاع تكوين مدرسة فكرية لتبني هذا المنظور الجديد في جامعة كاليفورنيا حيث كان يزاول مهنة التدريس في مدينة لوس أنجلوس، ثم انتشر هذا المنظور لاحقاً في باقي الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وبقية دول العالم.

ثانياً/ المبادئ الأساسية للمنظور الإثنوميثودولوجي:

1/ النظام الاجتماعي كإنجاز اجتماعي:

إن مبدأ النظام الاجتماعي كـ "إنجاز اجتماعي" هو الافتراض النظري الأكثر تميزاً في الإثنوميثودولوجيا، والذي يمثل نقطة افتراقها الجوهرية عن السوسيولوجيا التقليدية. نذكر على سبيل المثال مقولة دوركايم الشهيرة: "مبدأنا الأساسي، مبدأ موضوعية الوقائع الاجتماعية" يفهم هذا عادةً على أنه ينبغي لنا افتراض موضوعية الوقائع الاجتماعية كمبدأ للدراسة (مما يوفر أساساً لعلم الاجتماع كعلم). أما قراءة غارفينكل البديلة لدوركايم فتتمثل في أنه ينبغي لنا التعامل مع موضوعية الوقائع الاجتماعية كإنجاز لأفراد المجتمع، وجعل عملية الإنجاز نفسها محور الدراسة.

وبالتالي يرفض هذا المبدأ فكرة أن النظام الاجتماعي (مثل التزام الأفراد بالقوانين، أو توقعات الدور، أو التسلسل الهرمي) هو كيان خارجي، ثابت، ومفروض على الأفراد (External Structure). بدلاً من ذلك، يُصِرُّ على أن النظام هو شيء مُنتج بفعالية، ومُؤدَّى، ويُعاد تكوينه بشكل مستمر من قبل الأعضاء أنفسهم في كل لحظة تفاعلية. فعندما يشارك الأفراد في التفاعل الاجتماعي، فإنهم يستخدمون "أساليبهم الشعبية" لجعل التفاعلات قابلة للفهم، ومعقولة، و"منظمة". هذا الفعل التكويني المستمر هو ما يُشار إليه بـ "الإنجاز الاجتماعي". فالنظام الاجتماعي ليس كائناً بل هو شيء يُفعل (فعلاً اجتماعياً)، ففي كل مرة يقف فيها الناس في طابور، أو يتبادلون التحية، أو يُفسرون تعبيراً إشارياً، فإنهم في الواقع يُجزون حالة نظامية مؤقتة ومحلية. يتم إنجاز النظام من خلال إظهار الأعضاء لكفاءتهم في استخدام القواعد الضمنية. هذا الإظهار هو الذي يُنشئ الدليل على وجود النظام في المقام الأول. فعندما أرد على تحينك بـ "مرحباً"، فإن هذا الفعل يُنجز واقعاً نظامياً بسيطاً: وهو أننا متفقون على أننا في سياق يوجب التحية والرد عليها.

إن "واقعية" الموقف الاجتماعي هي نفسها إنجاز. على سبيل المثال، أن يتم اعتبار اجتماع ما "اجتماع عمل رسمي" هو إنجاز يتم عبر أفعال الأعضاء (الجلوس في أماكن محددة، تدوين الملاحظات، استخدام لغة رسمية). لو بدأ الجميع في المزاح والحديث الجانبي، سينهار الإنجاز وسيُغيّر النظام المنجز إلى "لقاء اجتماعي غير رسمي".

2/ التركيز على "الأساليب الشعبية"

إن التركيز على "الأساليب الشعبية" (أساليب الناس) هو في الواقع التعريف الجوهرى والمبدأ الأساسي المؤسَّس للإثنوميثودولوجيا، إذ ينطلق غارفينكل من مبدأ أن الحياة الاجتماعية المنظمة (النظام الاجتماعي) يجب أن تُنجز، ولتحقيق هذا الإنجاز، يجب أن يمتلك الناس طرقاً وأساليب عملية ومشاركة لتنظيمه (الأساليب الشعبية)، وهي تلك الإجراءات التي يستخدمها أفراد المجتمع لجعل عالمهم اليومي قابلاً للقراءة والفهم، ومنطقياً، ومنظماً. فالأساليب الشعبية هي المادة الخام التي يتم تحليلها في الإثنوميثودولوجيا، وهي بالتالي مجال الدراسة وموضوعها. هذه الأساليب تشمل المفاهيم الفرعية التي سوف نناقشها لاحقاً وهي: الإشارية، والانعكاسية، والمحاسبة.

3/ اللامبالاة الإثنوميثودولوجية:

فيما يتعلق بالنظرية، دعا غارفينكل باستمرار إلى موقف اللامبالاة الإثنوميثودولوجية، وهو مبدأ لا أدري فيما يتصل بالنظرية الاجتماعية، والذي يصر على أن الفهم المشترك لأعضاء البيئة الاجتماعية قيد الدراسة له الأسبقية على أي مفاهيم قد يجلبها المنظر الاجتماعي إلى التحليل من خارج تلك البيئة. فاللامبالاة الإثنوميثودولوجية، ترفض صراحةً الالتزام بأي نظرية اجتماعية أو فلسفية. وبالمثل، لا تؤيد أي مناهج رسمية للبحث، مُصرّةً على أن تُملي طبيعة الظاهرة المدروسة منهج البحث. ولذلك أجرى علماء الإثنوميثودولوجيا دراساتهم بطرق متنوعة، والهدف من ذلك هو "اكتشاف ما يفعله الأشخاص في مواقف معينة، والمناهج التي يستخدمونها، لخلق نمط منظم للحياة الاجتماعية".

فالافتراض الأساسي للدراسات الإثنوميثودولوجية، كما وصفته عالمة الاجتماع والمنظرة السوسيولوجية الأمريكية المهمة بمجال الإثنوميثودولوجيا "آن راولز" (Anne Warfield Rawls)، متحدثةً باسم غارفينكل تقول: "إذا افترضنا، كما افترض غارفينكل، أن الطابع الهادف والنمطي والمنظم للحياة اليومية هو أمرٌ يجب على الناس السعي لتحقيقه، فعلينا أيضاً افتراض وجود

بعض المناهج لتحقيق ذلك". أي أن "أفراد المجتمع يجب أن يمتلكوا أساليب مشتركة يستخدمونها لبناء نظام ذي معنى للمواقف الاجتماعية بشكل متبادل".

وترى "راولز" أن: "الإثنوميثودولوجيا مشروع تجريبي شامل مُكرّس لاكتشاف النظام الاجتماعي وفهمه (إنتاج المعنى) كإنجازات جماعية ملموسة". وأن حجر الزاوية في الحجة الإثنوميثودولوجية هو وجود أنظمة اجتماعية محلية؛ وأن هذه الأنظمة ملموسة في المشاهد التي تنشأ فيها؛ وأن إمكانية فهمها تستند إلى الوجود الفعلي لهذه الأنظمة وتطبيقها التفصيلي". هذه هي سياسة اللأدرية المتعمدة، أو اللامبالاة، تجاه إملاءات وأحكام مسبقة وأساليب وممارسات التحليل الاجتماعي كما هو مُتصوّر تقليدياً (مثل: نظريات الانحراف، وتحليل السلوك كقواعد مُحكمة، ونظرية الدور، ونظريات الطبقة الاجتماعية، الخ)، تُمثل إملاءات وتحيزات تعمل على تشكيل هيكل مسبق للتحقيقات العلمية الاجتماعية التقليدية بغض النظر عن الموضوع الذي يتم تناوله كموضوع للدراسة، أو البيئة التحقيقية التي تخضع للتدقيق.

ثالثاً/ المفاهيم المحورية في التحليل الإثنوميثودولوجي للحياة اليومية:

طوّر رواد الإثنوميثودولوجيا عدداً من المفاهيم الأساسية التي تعمل كعدسة لتحليل التفاعل اليومي، أبرزها ما يلي:

1/ الإشاريّة أو السياقيّة (Indexicality) "اعتماد المعنى على السياق":

تشير السياقيّة إلى المبدأ القائل بأن المعنى الكامل لأي تعبير (سواء كان كلمة، أو عبارة، أو فعلاً اجتماعياً) لا يمكن أن يتحدد بالكامل في حد ذاته، ولكنه يشير بالضرورة ويعتمد على السياق الفوري الذي يُستخدم فيه. وفي إطار الإثنوميثودولوجيا، يُنظر إلى جميع التعبيرات على أنها إشاريّة (Indexical)، بمعنى أنها تحتاج إلى معرفة مشتركة أو خلفية سياقية لكي تكون مفهومة بشكل صحيح.

حيث يرفض غارفينكل فكرة أن اللغة الاجتماعية يمكن أن تكون "شكلية رسمية"، أي أن تكون كلماتها ذات معنى ثابت ومجرد يمكن فهمه بغض النظر عن المتحدث أو المستمع أو الزمان والمكان. إذ لا يمكن لأي تعبير أن يتضمن كل المعلومات اللازمة لفهمه بشكل كامل، بل يجب أن يُستدل على الجزء المفقود من السياق المشترك. وتقترض الإشاريّة أن الأعضاء يُشاركون في تفاهات ضمنية لا تُقال، وهي التي تملأ فجوة المعنى وتجعل التعبير قابلاً للقراءة والفهم.

فالإشاريّة هي الأداة التي تكشف عن المعرفة الخلفية المشتركة التي يأخذها الأعضاء كأمر مسلم به (Taken-for-Granted). فعندما نستخدم تعبيراً إشارياً، فإننا نستدعي هذه الخلفية المشتركة ونفترض أنها مفهومة للطرف الآخر. لذلك فإن كثيراً من أعمال جارفينكل الأولى قامت على تكليف طلابه ببحوث ميدانية تدريبية خلص منها إلى أننا نحن الذين نخلق الإحساس بالمعنى والوجود في الحياة الاجتماعية، الذي قد لا يكون له وجود في الواقع، ونحافظ على استمراره وبقائه. ومن تلك البحوث التدريبية أن يوجه الطلاب سؤال: "ماذا تعني بذلك؟" بلا هوادة طوال الحوارات. وكانت نتيجة ذلك أن شعر الناس بالضيق والغضب لأن قواعد تحديد المعاني المستقرة التي يستخدمونها بشكل مسلم به تتعرض لتساؤل أو الاستهانة، فقد فقدوا إحساسهم السابق بالواقع الاجتماعي.

2/ الانعكاسية أو التداولية (Reflexivity) "التكوين المستمر للواقع الاجتماعي":

تُعد الانعكاسية في الإثنوميثودولوجيا، كما صاغها "غارفينكل" مفهوماً محورياً يصف العلاقة الجدلية الدائمة بين الفعل والسياق الاجتماعي. إنها الآلية التي من خلالها لا يكتفي الأعضاء بـ العيش في نظام اجتماعي، بل يُنشئونه ويُحافظون عليه بشكل مستمر في كل لحظة تفاعلية. وتتص الانعكاسية على أن التفاعل الاجتماعي هو عملية مُشكّلة لبعضها البعض، حيث أن الفعل يُفسّر بالرجوع إلى السياق؛ فنحن نفسر سلوك شخص ما (فعله) بناءً على ما نعتقد أنه طبيعة الموقف (السياق). والسياق يُنْبَت أو يُعاد تشكيله بالفعل؛ فالفعل الذي نقوم به ينعكس مرة أخرى على الموقف ليؤكد طبيعته أو يُعدّلها، ويجعلها قابلة للقراءة للآخرين. وبعبارة أخرى، تُعدّ أفعالنا دليلاً على النظام الاجتماعي، وهذه الأفعال هي في الوقت نفسه نتاج لذاك النظام.

إجمالاً، هذا المفهوم ربما يكون الأكثر تعقيداً وأهمية. إنه يصف العلاقة الدائرية والتبادلية بين الفعل والسياق. فأفعالنا هي نتاج للوضع الاجتماعي القائم (نحن نتصرف وفقاً لما "نفهمه" عن الموقف)، وفي الوقت نفسه، هذه الأفعال هي التي تُشكل ويُحافظ على هذا الوضع وتجعله مفهوماً للأعضاء. على سبيل المثال: عندما يضحك شخصان على نكتة، فإن الضحك هو نتاج لفهمهم المشترك بأن شيئاً "مضحكاً" قد قيل (تأثير السياق). وفي الوقت نفسه، فإن فعل الضحك نفسه يؤكد ويُعزز ويُنتج حالة "الوضع المضحك" أو "الاجتماع الودي". الفعل والسياق يعزز كل منهما الآخر بشكل مستمر ومتزامن. الأفراد لا يتبعون القواعد فحسب، بل إن أفعالهم في الالتزام أو عدم الالتزام تُعيد تعريف الموقف أو تُؤكد القاعدة في الموقف. وعليه تُجبرنا الانعكاسية على النظر إلى النظام الاجتماعي على أنه إنجاز عملي يومي، وليس مجرد بنية هيكلية صامتة، حيث تظهر أن أفعالنا ليست مجرد استجابات لقواعد، بل هي مكونات نشطة تساهم في تعريف وتشكيل هذه القواعد لحظة بلحظة.

3/ المُحاسبة أو تقديم الحساب (Accountability) "التبرير العملي للنظام الاجتماعي":

تشير المحاسبة في المنظور الإثنوميثودولوجي إلى الخاصية الأساسية والمنتشرة للتفاعلات الاجتماعية، والتي بموجبها يمارس الأعضاء في أي موقف اجتماعي عملية مستمرة لجعل أفعالهم وأفعال الآخرين قابلة للتفسير ومفهومة ومنطقية بالنسبة لهم وللأطراف الأخرى. فالمحاسبة هي إجراء عملي يقوم به الأعضاء يومياً، وليس مجرد عملية نظرية أو أخلاقية. فهي الطريقة التي يُقدم بها الأفراد "حسابات" (Accounts) لأفعالهم أي تفسيرات وتبريرات ووصف لهذه الأفعال.

فالمُحاسبة هي الوسيلة التي يستخدمها الناس لربط أفعالهم بـ المعاني المشتركة والتوقعات المتبادلة في بيئتهم، وهي الآلية التي يضمن بها الأعضاء أن عالمهم الاجتماعي يظل عالماً عقلانياً ومنظماً.

تُقدم هذه المفاهيم مجتمعة رؤية راديكالية (جذرية) للسوسيولوجيا؛ فالنظام الاجتماعي ليس نتيجة لـ "قواعد خارجية" مسبقة، بل هو إنجاز مشترك ومستمر يتم بناؤه في كل تفاعل اجتماعي، في كل محادثة، وكل فعل، من خلال استخدام الأعضاء لهذه الأساليب الشعبية الإشارية والانعكاسية والمحاسبة.

رابعا/ المناهج المستخدمة في الدراسات الإثنوميثودولوجية:

تستخدم الدراسات الإثنوميثودولوجية مجموعة من المناهج والتقنيات التي تتميز بأنها مصممة خصيصاً للكشف عن "الأساليب الشعبية" التي يستخدمها الأفراد لإنتاج النظام الاجتماعي في المواقف الطبيعية. وبما أن الإثنوميثودولوجيا تتبع مبدأ

اللامبالاة المنهجية، فإنها لا تلتزم بمنهج واحد، بل تسمح لطبيعة الظاهرة المدروسة بتحديد التقنية المناسبة. ومن مناهجها الأكثر شيوعاً ما يلي:

1/ تجارب خرق الأعراف (Breaching Experiments):

تُعد تجارب "خرق الأعراف" المنهجية الرئيسية للإثنوميثودولوجيا، وتعتمد على تقنية كسر القواعد الاجتماعية غير المكتوبة التي تحكم التفاعلات اليومية وانتهاكها بطريقة متعمدة، والهدف من ذلك ليس دراسة الخرق نفسه، بل تحليل رد الفعل الذي ينتج عن الأعضاء (مثل الارتباك، الغضب، المطالبة بالتفسير). فردود الأفعال هذه تكشف عن وجود هذه القواعد المُسلم بها في الحياة اليومية، وتُظهر مدى أهميتها للحفاظ على الشعور بالأمان الاجتماعي، كما تعكس أيضاً محاولة الأعضاء إعادة بناء النظام الاجتماعي المهدد من خلال محاولة إعادة تفعيل هذه القواعد الضمنية.

لذلك تُعد تجارب الخرق طريقة للكشف عن العمل المشترك الذي يقوم به أعضاء فئات اجتماعية معينة للحفاظ على نظام اجتماعي واضح ومشترك. على سبيل المثال، يمكن للقيادة في الاتجاه الخاطئ في شارع مزدحم ذي اتجاه واحد أن تكشف عن رؤية قيمة لا حصر لها حول الممارسات الاجتماعية النمطية، والنظام الأخلاقي، لمجتمع مستخدمي الطريق. كذلك التصرف كضيف في المنزل؛ فعندما طلب غارفينكل من طلابه أن يعودوا إلى منازلهم ويتصرفوا كأنهم نزلاء (lodgers) غرباء، سمحت هذه التجربة بالكشف عن القواعد غير المعلنة التي تحكم العلاقة بين الوالدين والأطفال. وبالتالي فالهدف من هذه التجارب هو إثبات أن اكتساب فهم أعمق للعمل المبذول في الحفاظ على أي نظام اجتماعي معين غالباً ما يكون أفضل من خلال اختراق هذا النظام الاجتماعي ومراقبة نتائجه، وخاصة تلك الأنشطة المتعلقة بإعادة بناء هذا النظام الاجتماعي، وتطبيع هذا الوضع الاجتماعي.

تجارب الخرق هي عدسة بحثية مصممة لإحداث انهيار جزئي ومؤقت للنظام الاجتماعي، بهدف تسليط الضوء على الأساليب غير المرئية التي يستخدمها الأعضاء لبناء هذا النظام الاجتماعي وصيانتها في الظروف العادية (الإشارية والانعكاسية والمُحاسبة) فنتائج تجارب الخرق هي التي تُظهر عمل القواعد:

* تُظهر الإشارية: تكشف رد فعل الأعضاء عن التفسيرات السياقية التي كانوا يعتمدون عليها.

* تُظهر الانعكاسية: تُظهر التجربة كيف أن الأعضاء يعملون على إعادة إنتاج النظام المهدد أو تثبيت القاعدة مجدداً من خلال ردود فعلهم، مما يؤكد أن النظام يُصان بشكل نشط.

* تُظهر المُحاسبة: المطالبة بتقديم الحساب؛ وهي الدليل على وجود القاعدة الاجتماعية التي تم انتهاكها.

2/ تحليل المحادثة (Conversation Analysis):

تُعد تحليل المحادثة منهجية شائعة في الإثنوميثودولوجيا، لدراسة التفاعل الاجتماعي، وتقوم على الدراسة المجهريّة والدقيقة للهياكل التفاعلية في المحادثات اليومية. وتعتمد على التسجيل الصوتي أو المرئي للتفاعلات الطبيعية اليومية، وتحويلها إلى نصوص دقيقة للغاية (Detailed Transcriptions) تسجل أدق التفاصيل (مثل التوقيفات، والتداخل في الكلام، ونبرات الصوت). وذلك بهدف الكشف عن كيفية استخدام الأعضاء لأساليب تناوب الأدوار (Turn-Taking)، وأزواج التناوب المتجاورة (Adjacency Pairs) مثل "السؤال/الجواب"، وميكانيزمات إصلاح (Repair Mechanisms) سوء الفهم أثناء المحادثة لتحقيق

التفاهم المشترك والنظام الاجتماعي. حيث يكشف تحليل المحادثة عن الكيفية التي يتم بها بناء النظام الاجتماعي لحظة بلحظة؛ من خلال أبسط صور التفاعل البشري وهي الكلام. إذ تُظهر أن حتى أكثر المحادثات عفوية لديها بنية دقيقة ومنظمة يتم التفاوض عليها وإنجازها بشكل مشترك.

3/ الملاحظة الإثنوغرافية الدقيقة (Detailed Ethnographic Observation):

تستخدم الإثنوميثودولوجيا الملاحظة الإثنوغرافية، لكن مع تركيز مجهري على التفاصيل الإجرائية والعملية. حيث يُركز الباحث على وصف دقيق وغير متحيز لأفعال الأعضاء وسلوكهم اللفظي وغير اللفظي في سياق طبيعي (مثل دراسة كيفية عمل موظفي الطوارئ، أو كيفية تنظيم العمل في المختبرات العلمية). وذلك بهدف فهم الكيفية التي يستخدم بها الأعضاء أدواتهم، ولغتهم، ومواردهم لإنجاز كفاءتهم المهنية أو اليومية.

المحاضرة الرابعة/ النظرية التفاعلية الرمزية في سوسيولوجيا الحياة اليومية

التفاعلية الرمزية هي نظرية ميكروسوسيولوجية تعود جذورها إلى أوائل القرن العشرين. وتُقدم هذه النظرية إطاراً تحليلياً يركز على الكيفية التي يبني بها الأفراد الواقع الاجتماعي من خلال التفاعلات الاجتماعية في الحياة اليومية والمعاني والرموز التي يضيفونها على هذا الواقع. تُفسر كيف يبني الأفراد الواقع الاجتماعي من خلال المعاني والتأويلات المشتركة. وعلى عكس النظريات السوسيولوجية الكبرى مثل الوظيفية أو الماركسية، التي تُركز على البنى الاجتماعية واسعة النطاق (مثل الأسرة أو الدين، أو الاقتصاد)، تتعمق التفاعلية الرمزية في تعقيدات التفاعلات وجهاً لوجه في الحياة اليومية والمعاني الذاتية التي يلحقها الأفراد بالرموز المستخدمة في هذه التفاعلات. وتتنظر إلى الرموز، سواء كانت لفظية أو غير لفظية، على أنها ليست ذات معنى بطبيعتها؛ بل يُستمد معناها من التفاعل الاجتماعي. وبدلاً من النظر إلى الأفراد على أنهم نتاج سلبي للمجتمع، ترى هذه النظرية الناس على أنهم مشاركون نشطون يُشكلون عالمهم الاجتماعي من خلال التفاعل اليومي.

أولاً/ المبادئ الأساسية للتفاعلية الرمزية

يمكن تلخيص المبادئ الأساسية التي تقوم عليها التفاعلية الرمزية في النقاط التالية:

1/ الواقع الاجتماعي يُبنى من خلال التفاعل الاجتماعي.

2/ التفاعل الاجتماعي يتشكل من خلال الأفعال الرمزية للناس.

3/ الأفعال الرمزية للناس تحكمها المعاني التي يُعطيها الناس للأشياء وللآخرين.

4/ تنشأ هذه المعاني و الرموز من التفاعل الاجتماعي بين الناس.

5/ تُنقل هذه المعاني من خلال الرموز، وفي مقدمتها اللغة، أثناء التفاعل الاجتماعي بين الناس.

6/ يُفسر الناس الرموز ويُعدّلون معانيها من خلال عملية تأويلية ذاتية ومستمرة في سياق مواقف التفاعل الاجتماعي.

هذه المبادئ الستة تُشكل دورة متكاملة ومتراصة تصف كيف ينتقل الفرد من إنتاج المعنى إلى الفعل، وكيف يُستخدم هذا

الفعل لبناء الواقع المشترك. وفيما يلي أبرز نقاط القوة في صياغة هذه المبادئ:

1. الواقعية البنائية: الواقع الاجتماعي يُبنى من خلال التفاعل الاجتماعي، فهو ليس مُعطى بل مُنتج اجتماعي.
 2. الفعل الرمزي كمحور: التفاعل الاجتماعي يتشكل من خلال الأفعال الرمزية للناس، التي تُمثل جوهر النظرية التفاعلية الرمزية؛ فهي تُشير مباشرة إلى أن كل فعل هو حامل لرسالة، أي أنه ينم عن سلوك هادف وليس سلوك غريزي.
 3. العلاقة السببية بين المعنى والفعل: فالأفعال الرمزية للناس تحكمها المعاني التي يُعطيها الناس للأشياء وللآخرين. حيث تؤكد هذه النقطة على أن المعنى هو الذي يُوجّه الفعل، وليس العكس.
 4. المصدر الاجتماعي للمعاني: حيث تنشأ هذه المعاني و الرموز من التفاعل الاجتماعي بين الناس. وهذا يوضح أن المعاني ليست فردية أو فطرية، بل هي منتج اجتماعي يولد ويستمد قوته من التشارك والاتفاق.
 5. أهمية الرموز: تُثقل هذه المعاني من خلال الرموز، وفي مقدمتها اللغة، أثناء التفاعل الاجتماعي بين الناس. وهذه النقطة تُبرز الآلية التي يتم بها نقل المعاني، وتضع اللغة في مقدمة الأدوات الرمزية.
 6. ديناميكية التأويل: يُفسّر الناس الرموز ويُعدّلون معانيها من خلال عملية تأويلية ذاتية ومستمرة في سياق مواقف التفاعل الاجتماعي. فهذه النقطة تؤكد على دور الفرد كفاعل نشط يُعيد بناء المعنى في كل موقف، من خلال العملية التأويلية.
- المفاهيم الأساسية في التفاعلية الرمزية:**

تتضمن التفاعلية الرمزية العديد من المفاهيم الأساسية التي تساعد في تفسير الحياة اليومية، وقد ساهم في تطوير هذه المفاهيم العديد من الرواد المؤثرين وفيما يلي أبرزهم والمفاهيم الأساسية التي قدموها في هذا السياق:

1/ جورج هيربرت ميد (George Herbert Mead) (1863-1931)

يُعتبر جورج هيربرت ميد الأب المؤسس للتفاعلية الرمزية، على الرغم من أنه لم يستخدم هذا المصطلح بنفسه. إذ لم ينشر أي كتاب خلال حياته، إلا أن أفكاره انتشرت على نطاق واسع من خلال محاضراته في جامعة شيكاغو. وقد لعب طلابه، بمن فيهم هيربرت بلومر (Herbert Blumer)، دورًا حاسمًا في الحفاظ على تعاليمه وأفكاره التي نُشرت في كتاب بعد وفاته بعنوان: "العقل، والذات والمجتمع" (Mind, Self and Society) عام 1934. وقد ركزت محاضرات ميد التي جُمعت في هذا الكتاب على الطبيعة الاجتماعية للعقل والذات، مُشددةً على كيفية تطوير الأفراد لإحساسهم بالذات من خلال التفاعلات مع الآخرين. فالعقل يُمثل قدرة الفرد على استخدام الرموز لخلق معانٍ للعالم من حوله؛ حيث يستخدم الأفراد اللغة والفكر لتحقيق هذا الهدف. والذات تُمثل قدرة الفرد على التفكير في الطريقة التي يُنظر بها إليه من قبل الآخرين. والمجتمع يُمثل المكان الذي تجري فيه كل هذه التفاعلات. وقد شكلت هذه الأفكار الأساس لما عُرف لاحقًا باسم "التفاعلية الرمزية".

وفي هذا الكتاب، قدم ميد عدة مفاهيم أساسية أهمها:

*الذات (The Self): افترض ميد أن الذات ليست فطرية بل تتطور من خلال التفاعل الاجتماعي. وقسم الذات إلى مكونين: "الأنا" (the I) (الجزء العفوي وغير المتوقع من الذات) و"الأنا الاجتماعية" (the me) (الجانب المُطَبّع اجتماعياً من الذات الذي يأخذ مواقف الآخرين بعين الاعتبار).

*الآخر المُعمَّم (The Generalized Other): يتمحور هذا المفهوم حول تكوُّن "الذات" من خلال استبطان (Internalization) الفرد للمنظور الكُلِّي للمجتمع، فعندما ينجح الفرد في استيعاب منظور "الآخر المُعمَّم"، فإنه يطور القدرة على رؤية نفسه كـ "موضوع" (Me) من خلال عيون المجتمع. هذا يعني أنه أصبح قادراً على تقييم سلوكه وتوجيه أفعاله بناءً على المعايير والتوقعات والقيم الجماعية، وهو ما يُشكِّل جوهر "الذات الاجتماعية" (The Social Self). حيث يرى ميد أن "الذات" ليست شيئاً يولد به الفرد، بل هي "سيرورة" (Process) تنشأ وتتطور حصراً من خلال التفاعل الاجتماعي واللغة. وقد حدد ميد ثلاث مراحل رئيسية لتطور الذات وصولاً إلى استيعاب "الآخر المُعمَّم":

_المرحلة التمهيديّة (أو التقليد) (Preparatory Stage) "التقليد البسيط": في هذه المرحلة، يقوم الرضّع والأطفال الصغار بمحاكاة وتقليد سلوكيات المحيطين بهم مثل التصفيق أو الابتسام دون فهم حقيقي للمعنى الكامن وراء هذه الأفعال، إنها مجرد استجابات آلية لا تُشكِّل "ذاتاً" بعد.

_مرحلة اللعب (Play Stage) "اللعب بأخذ أدوار فردية": يبدأ الطفل هنا في أخذ أدوار "الآخرين المُهمّين" (Significant Others)، أي الأفراد المحددين والمؤثرين في حياته مثل دور الأم، الأب، الطبيب، أو المعلم. حيث يتعلم الطفل رؤية نفسه من منظور شخص آخر "واحد" في كل مرة. إذ ينتقل الطفل بين هذه الأدوار (يلعب دور الأب، ثم في لحظة أخرى يلعب دور المعلم) لكنه لا يمتلك القدرة على دمج هذه الأدوار المتعددة في منظور واحد متماسك.

_مرحلة الألعاب المُنظَّمة (Game Stage) "فهم أدوار متعددة في ألعاب مُنظمة": هنا تحدث النقلة النوعية. حيث ينتقل الطفل من "اللعب" الفردي إلى "الألعاب المنظمة" (مثل كرة القدم). ولكي ينجح الطفل في اللعبة، لا يكفي أن يأخذ دوراً واحداً، بل يجب عليه أن يفهم ويستوعب جميع أدوار اللاعبين الآخرين في الفريق في وقت واحد، وأن يتوقع كيف سيرتبط دوره بأدوارهم جميعاً. هذه القدرة على استيعاب منظومة الأدوار المترابطة وتوقعات الفريق (أو المجتمع) ككل هي بالضبط ما يبلور منظور "الآخر المُعمَّم". ومن خلال استيعاب "الآخر المُعمَّم" في مرحلة الألعاب المنظمة، تتشكل لدى الفرد "ذات مُكتملة التكوين" (A Fully-formed Self). هذه الذات ليست كياناً ثابتاً، بل هي حوار مستمر بين جانبين: "الأنا" (The I) وهو الجانب العفوي، التلقائي، والمُبدع من الذات. و"الذات الاجتماعية" (The Me) وهي الجانب المنظم والمُراقب، والذي يمثل "الآخر المُعمَّم" المُستبطن بداخلنا. وهكذا، فإن "الذات المُكتملة" عند ميد هي تلك التي تستطيع الموازنة بين الدوافع التلقائية (I) والمتطلبات الاجتماعية (Me)، مما يسمح لها بالاندماج بفاعلية في المجتمع.

*التواصل الرمزي (Symbolic Communication): أكد ميد على أهمية الرموز (symbols)، وخاصة اللغة (language)، في التفاعل البشري وتطور الذات. حي يرى أن البشر يتصرفون تجاه الأشياء (الأفراد، المواقف، الكائنات) بناءً على المعاني التي تُنسب إليها، وهذه المعاني تُبنى وتُتداول وتُعدَّل من خلال التفاعل الاجتماعي باستخدام الرموز.

2/ هيربرت بلومر (Herbert Blumer) (1900-1987)

تولى هيربرت بلومر، وهو أحد أبرز طلاب جورج هيربرت ميد، مهمة بلورة أفكار ميد وتحويلها إلى نظرية سوسيولوجية تُعرف باسم "التفاعلية الرمزية" (Symbolic Interactionism)، وهو أول من قدّم هذا المصطلح في عام 1937، في ورقة بحثية بعنوان "علم النفس الاجتماعي" (Social Psychology). كما لعب بلومر دوراً محورياً في تطوير وتعميم التفاعلية الرمزية

كمنظور نظري (theoretical perspective) متميز داخل حقل علم الاجتماع. وذلك من خلال تقديمه لثلاثة مفاهيم ومقدمات رئيسية لتحليل التفاعل البشري وتوضيح كيفية بناء البشر لعالمهم الاجتماعي وتوجيه سلوكهم:

* المعنى (Meaning) "الفعل على أساس المعنى": أكد بلومر أن البشر يتصرفون تجاه الأشياء بناءً على معانيها بالنسبة لهم، أي على أساس المعاني التي تتطوي عليها هذه الأشياء بالنسبة لهم. إذ لا يتفاعل الأفراد مع الأشياء (سواء كانت مادية مثل كرسي، أو اجتماعية مثل صديق، أو مجردة مثل العدالة) بناءً على خصائصها الثابتة أو الموضوعية، بل بناءً على التفسير والمعنى الشخصي الذي يمنحونه لها. فسلوك الفرد ليس مجرد رد فعل آلي لمنبه خارجي.

* الرمز (Symbol): هو أي شيء يحمل معنى محدداً ومُتعارفاً عليه من قبل أشخاص يتشاركون نفس الثقافة. فيمكن أن تكون الرموز كلمات، أو لغة الجسد، أو أشياء (مثل العلم أو خاتم الزواج). وفي سياق التفاعلية الرمزية، يتناول بلومر الرمز من حيث عمله وتأثيره. أي:

_ الرمز كـ "شيء يحمل معنى": الرمز بالنسبة لبلومر هو أي شيء (كلمة، إيماءة، غرض، فكرة) لا يحمل معنى فطرياً أو كامناً، بل يتم إضفاء معنى عليه من قبل البشر.

_ الرمز كوسيط للتفاعل: الرمز هو أداة يتفاعل البشر من خلالها. وبدون الرموز، لن يكون هناك تفاعل اجتماعي بالمعنى الإنساني الهادف.

_ الرمز كمحفز للفعل (الاستجابة): الأهم من كل شيء، هو أن الرمز هو ما يوجه فعل الإنسان.

* التفاعل الاجتماعي (Social Interaction) "نشأة المعنى من التفاعل": يرى بلومر أن المعاني تنشأ من التفاعل الاجتماعي مع الآخرين، أي هي نتاج للتفاعل الاجتماعي الذي يحدث بين الأفراد في المجتمع الإنساني، وليست فطرية وليست لصيقة بالشيء بطبيعتها. إنها تُخلق وتُكتسب وتُداول وتُصبح مشتركة من خلال عملية التفاعل والتواصل الاجتماعي المستمرة، وخاصة باستخدام اللغة.

* العملية/السيروية التأويلية (Interpretive Process) "تعديل المعنى باستمرار من خلال التأويل": أكد بلومر أن المعاني تُعالج وتُعدل من خلال عملية تأويلية مستمرة يستخدمها الشخص في تعامله مع الأشياء التي يواجهها. فالأفراد ليسوا مجرد متلقين سلبيين للمعاني؛ بل هم فاعلون نشطون. إذ يمر الفرد بعملية تأويل ذاتي (يُطلق عليها أحياناً "الحديث الداخلي") لتقييم الموقف، وتعديل المعنى المشترك، ومن ثم اختيار السلوك المناسب قبل الاستجابة. هذا التأويل يضمن مرونة السلوك الإنساني وقدرته على التكيف مع المواقف الجديدة.

3/ تشارلز هورتون كولي (Charles Horton Cooley) (1864-1929)

هو أحد المؤسسين الأوائل والمؤثرين في مدرسة التفاعلية الرمزية، وقد تركز عمله بشكل خاص على العلاقة العضوية بين الذات والمجتمع وكيفية تشكلهما عبر التفاعل. ومن أهم المفاهيم التي جاء بها "كولي" في هذا الإطار ما يلي:

* الذات المرآتية (The Looking-Glass Self): هذا هو أشهر مفهوم قدمه كولي على الإطلاق، وهو يصف العملية التي من خلالها يتشكل إحساسنا بالذات والهوية من خلال تصوراتنا عن كيفية رؤية الآخرين لنا. تقوم هذه العملية على ثلاث خطوات متتالية:

_تخيل مظهرنا أمام الآخرين: نتخيل كيف نبدو في نظر شخص آخر.

_تخيل حكمهم علينا: نتخيل كيف يحكم هذا الشخص على مظهرنا أو سلوكنا المتخيل.

_الشعور بالذات: نشعر بنوع من الاستجابة العاطفية (مثل الفخر أو الخزي أو الخجل) نتيجة لتخيلنا لحكم الآخرين علينا.

فحسب "كولي" يتحدد (من نحن) ليس بما نحن عليه فعلاً، بل بما نظن أن الآخرين يروننا عليه ويحكمون علينا به.

* الجماعات الأولية (Primary Groups): حيث قام كولي بصياغة هذا المصطلح وأكد على دوره المحوري في التنشئة الاجتماعية وتشكيل الذات. ويقصد بالجماعات الأولية تلك الجماعات التي تتميز بالتفاعل الواجهي (Face-to-Face Interaction) الوثيق والتعاوني، وتتميز بكونها صغيرة نسبياً ودائمة. وهذه الجماعات هي المصدر الأساسي لطبيعة الفرد الاجتماعية وتشكيل مثله وأخلاقه وعواطفه. ومن أمثلة هذه الجماعات نجد: الأسرة، وجماعات اللعب للأطفال، ومجتمع الجوار. ففي هذه الجماعات يتم إنشاء المعاني المشتركة وتكتسب المشاعر والعواطف التي هي أساس الـ"ذات".

*الذات الاجتماعية (The Social Self) أو "النحن" ("The We"): هي الذات التي تتطور بالكامل داخل سياق المجتمع والتفاعلات الجماعية. فهي شكل من أشكال نمو الأنا حيث يمتد إحساس الفرد بذاته ليشمل الجماعة الأولية، إذ يشعر الفرد بالارتباط العضوي بهذه الجماعة ويرى مصالحه ومصيره مرتبطة بها. حيث أكد كولي على الترابط بين الذات والمجتمع، رافضاً فصلهما. فبالنسبة له، "الذات والمجتمع هما وجهان لعملة واحدة".

4/ إيرفينغ غوفمان (Erving Goffman) (1922-1982)

يُعتبر إيرفينغ غوفمان، عالم الاجتماع الكندي-الأمريكي، الرائد الأبرز في "سوسيولوجيا الحياة اليومية"، في إطار النظرية التفاعلية الرمزية. فإذا كان "ميد وبلومر" هم المؤسسون النظريون لها، فإن غوفمان هو مَنْ أخذ أفكارها وطبقها ببراعة فذة على التفاصيل الدقيقة في تفاعلاتنا اليومية. واعتمد غوفمان في ذلك على ما يُسميه بالتحليل الدراماتورجي (Dramaturgical Analysis) كإطار نظري ومنهجي، مُستخدماً المسرح كاستعارة لفهم كيفية تقديم الأفراد لأنفسهم في الحياة الاجتماعية، وفصل ذلك في كتابه الشهير "تقديم الذات في الحياة اليومية" (The Presentation of Self in Everyday Life) عام 1956. لقد افترض أن الحياة اليومية هي مثل العرض المسرحي (Theater Performance)، والأفراد هم ممثلون (Actors)، والمجتمع يوفر المسرح (The Stage)، والناس من حولنا هم الجمهور (The Audience). أي أن الحياة الاجتماعية تشبه عرضاً مسرحياً، والناس جميعاً ممثلون يُؤدون فيه أدواراً (مثل طالب، طبيب، صديق) أمام جمهور (الآخرين الذين نتفاعل معهم) على مساح مختلفة (مثل قاعة المحاضرات، والعبادة، والمقهى). وهدفهم من هذا الأداء هو تقديم صورة معينة عن ذاتهم.

وفيما يلي أبرز المفاهيم التي قدمها غوفمان في هذا السياق:

* إدارة الانطباع (Impression Management): هي التقنيات التي يستخدمها "الممثلون" (أي الأفراد في المجتمع) للتحكم في الانطباعات التي يشكلها الآخرون عنهم في أي موقف، حيث يُقدمون أنفسهم بطرق معينة لخلق انطباعات محددة في أذهان الآخرين. إذ يُحاولون بوعي (وأحياناً بغير وعي) توجيه الآخرين لرؤيتهم بالطريقة التي يُريدونها، والتي تكون غالباً إيجابية ومتوافقة مع الدور الذي يؤديونه. هذه العملية أطلق عليها غوفمان اسم "إدارة الانطباع".

* المسرح الأمامي مقابل المسرح الخلفي (Front Stage vs Back Stage): لفهم "إدارة الانطباع"، ميّز غوفمان بين نوعين من السلوك؛ سلوك المسرح الأمامي وسلوك المسرح الخلفي.

_المسرح الأمامي (Front Stage): يُشير إلى اللحظات التي نكون فيها أمام العامة أو في دور اجتماعي (Social Role) وندرك وجود جمهور؛ هنا، نؤدي دوراً تمثيلاً وفقاً للمعايير المتوقعة، بحيث نراقب سلوكنا بصرامة.

_المسرح الخلفي "خلف الكواليس" (Back Stage): هي المنطقة الخاصة، بعيداً عن أعين الجمهور، حيث يمكن للممثل "إسقاط القناع". إنه المكان الذي نرتاح فيه من أداء الدور التمثيلي (مثل التواجد في المنزل أو مع الأصدقاء المقربين)، وحيث يُمكن أن نستعد له، أو حتى نشكو منه. هنا، يمكننا التصرف بشكل غير رسمي، مُظهرين جوانب من أنفسنا أخفيناها في المسرح الأمامي، وهو ما قد يقوض أدائنا لو رآه الجمهور.

* طقوس التفاعل (Interaction Rituals): يرى غوفمان أن التفاعلات اليومية العابرة، مثل التحيات أو إفراح المجال، ليست عشوائية، بل هي "طقوس" صغيرة تحافظ على النسيج الاجتماعي. هذه الطقوس هي أفعال رمزية تُظهر الاحترام المتبادل وتؤكد على عضويتنا في المجتمع. عندما نقول "صباح الخير"، "شكراً"، أو "آسف"، فنحن لا ننقل معلومات حرفية فقط، بل نؤدي طقساً يؤكد أننا نعترف بوجود الآخر ونحترم وجهه الاجتماعي. والفشل في أداء هذه الطقوس (مثل تجاهل تحية شخص ما) يُعتبر انتهاكاً اجتماعياً خطيراً.

يُعد عمل غوفمان مهماً لأنه يُسلط الضوء حتى على "التفاصيل الصغيرة" للحياة اليومية (مثل التواصل البصري، والمحادثات القصيرة، كيف نقف، ماذا نرتدي، كيف نلقي التحية، كيف نخفي أخطاءنا)، وأظهر أنها ليست تفاصيل تافهة، وأنه من خلالها يتم الحفاظ على النظام والمعنى في المجتمع، إذاً هي جوهر بناء الواقع الاجتماعي والحفاظ عليه.

المحاضرة الخامسة/ النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت) في سوسيولوجيا الحياة اليومية

أولاً/ نبذة مختصرة عن مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية:

أ/ النشأة والسياق التاريخي:

تأسست مدرسة فرانكفورت في عام 1923 في ألمانيا، وتحديداً في معهد البحوث الاجتماعية، التابع لجامعة غوته (Goethe University) في فرانكفورت. كان الهدف الأولي للمعهد، الذي تأسس بفضل تبرع من فيليكس فايل (Felix Weil)، هو تطوير الدراسات الماركسية ولكن بمرونة فلسفية ومنهجية تسمح بالتفكير النقدي المستقل عن الأطر الحزبية التقليدية. وشكل السياق التاريخي المضطرب في القرن العشرين، وخاصة صعود النازية والسياسات الرجعية في المجتمعات الرأسمالية الليبرالية، دافعاً أساسياً لتطوير النظرية النقدية. رأى مُنظرو فرانكفورت أن النظريات الاجتماعية القائمة، بما في ذلك الماركسية-اللينينية الجامدة فلسفياً، كانت عاجزة عن تفسير هذه التحولات العميقة في السيطرة الاجتماعية والسياسية. اضطرت المدرسة للانتقال إلى الولايات المتحدة في عام 1933، حيث استضافتها جامعة كولومبيا في نيويورك. وقد عززت تجربة المنفى قناعات رواد هذه النظرية بأن القمع لم يعد يقتصر على الاستغلال الاقتصادي المباشر، بل تغلغل في البنية الفوقية الثقافية والإيديولوجية للمجتمع

وسيطر عليها. الأمر الذي دفع النقيبين إلى وضع الثقافة والوعي الزائف في صميم عملية السيطرة، ما يبرر التحول المنهجي نحو دراسة تفاصيل الحياة اليومية وكيفية تشكيل الوعي الفردي فيها.

وتتميز النظرية النقدية بكونها مقارنة متعددة التخصصات حاولت تحقيق تزاوج نظري بين ثلاثة تقاليد فكرية كبرى:

*التراث الماركسي: خاصة نقد الرأسمالية.

التحليل النفسي: وخاصة أفكار سيغموند فرويد، لتفسير دور اللاوعي والنفسية في تكيف الأفراد مع آليات القمع.

الفلسفة الجدلية: المستمدة من هيغل، لفهم التفاعلات المتناقضة داخل الواقع الاجتماعي.

ب/ رواد النظرية النقدية: تضم المدرسة أجيالاً متعددة من العلماء والفلاسفة الذين ساهموا في تطوير النظرية النقدية:

*الجيل الأول (المؤسسون الأوائل):

_ماكس هوركهايمر (Max Horkheimer): يُعد المدير والمنظر الرئيسي الذي صاغ الأسس المنهجية للنظرية النقدية، وأكد على دور الثقافة في تشكيل الواقع الاجتماعي.

_تيودور ف. أدورنو (Theodor W. Adorno): فيلسوف وعالم اجتماع وموسيقولوجي، ركز عمله على نقد الثقافة الجماهيرية وتأثيرها الموحد والقمعي.

_هربرت ماركوزا (Herbert Marcuse): اشتهر بتحليلاته للمجتمع الصناعي المتقدم ونقده للتكنولوجيا والاستهلاك والحاجات الكاذبة.

_فالتر بنيامين (Walter Benjamin): قدم مساهمات فريدة في فلسفة الفن وعلاقته بالإنتاج التقني.

_إريك فروم (Erich Fromm): ساهم في دمج التحليل النفسي مع الاجتماعي.

*الجيل الثاني:

_يورغن هابرماس (Jürgen Habermas): أحد أبرز مفكري الجيل الثاني، الذي وسع نطاق النظرية النقدية، وفتح حواراً عالمياً عبر تطويره لنظرية الفعل التواصلي (Theory of Communicative Action) وتحليله لنقد استعمار عالم الحياة.

ثانياً/ المبادئ الأساسية للنظرية النقدية في علم الاجتماع:

تتميز النظرية النقدية بمنهجها الجدلي الذي يعارض بشدة المناهج الوضعية السائدة في العلوم الاجتماعية، وفيما يلي

أبرز مبادئها:

1/ النقد المنهجي:

أ/ رفض الوضعية والحياد القيمي: أقام هوركهايمر تمييزاً حاداً بين النظرية النقدية والنظرية التقليدية، حيث ربط الأخيرة بالمنطق الوضعي أو ما أسماه "العلموية" (Scientism)، حيث تعتمد على منظور تقليدي يهدف إلى اكتشاف وتثبيت "القوانين العلمية" العامة حول العالم الحقيقي عبر الملاحظة الخالصة. ترفض النظرية النقدية هذا المنهج، مؤكدة أن محاولة الفصل بين الذات والموضوع، أو بين الباحث والقيم، في دراسة الظواهر الاجتماعية هي موقف إيديولوجي في حد ذاته يخدم التكيف مع الواقع القائم. فالباحث

الاجتماعي بالنسبة للنقديين لا يمكن أن يكون مجرد تسجيل للحقائق الموضوعية التي يُفترض وجودها بشكل مطلق، بل يجب أن يكون متجهاً نحو الفهم النقدي للوضع السائد.

ب/ **الهدف التحويلي للبحث الاجتماعي:** بخلاف النظريات التي تسعى للتفسير أو التنبؤ، فإن النظرية النقدية تلتزم بـ "مشروع التحرر الإنساني". فالغرض من البحث النقدي هو الربط بين النظرية والممارسة، بمعنى أن الهدف لا يقتصر على فهم المجتمع وتناقضاته، بل يتعداه إلى المساهمة في تحويله. وبالتالي، تُصنّف النظرية النقدية ضمن المقاربات التي تعتبر أن الغرض من البحث الاجتماعي هو تبيان التناقضات الداخلية في النظام الاجتماعي القائم، بهدف تحفيز الوعي القادر على تجاوز هذا النظام.

2/ الشمولية:

أ/ **مناهضة التجزئ والتخصص (Anti-Specialization):** تنتقد مدرسة فرانكفورت ظاهرة التخصص الضيق (Specialisation) في العلوم الأكاديمية. وتعتبر المدرسة أن هذا التخصص هو مظهر من مظاهر العقلانية الأداة المتغلغلة، حيث يؤدي إلى "تدمير كل صورة للكل". وترى أنه يجب على التحليل السوسيولوجي النقدي أن يتجاوز التجزئة المنهجية ليفهم الكل الاجتماعي، أي التفاعل الجدلي بين البنى الاقتصادية والثقافية والنفسية.

ب/ **الشمولية المتعددة التخصصات (Multi-disciplinary Totality):** نظراً لأن القمع والسيطرة في المجتمع الحديث شاملان ويتخذان أشكالاً متعددة (اقتصادية، ونفسية، وثقافية)، كان لابد للنظرية النقدية أن تكون متعددة التخصصات، تدمج رؤى العلوم الاجتماعية والفلسفة والتحليل النفسي لتفكيك آليات الهيمنة المعقدة.

ثالثاً/ **المفاهيم الأساسية للنظرية النقدية في سوسيولوجيا الحياة اليومية**

1/ صناعة الثقافة (Culture Industry)

صناعة الثقافة هي مفهوم أساسي في النظرية النقدية، طوره كل من أدورنو وهوركهايمر في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. ويشير هذا المفهوم إلى التنظيم المنهجي لإنتاج الثقافة بوصفها سلعة يتم إنتاجها بكميات هائلة. ويتمثل الهدف الأساسي لهذه الصناعة في تحقيق التوحيد (Standardization) والتميط، حيث تطبع الثقافة كل شيء بنفس الختم. هذه الصناعة لا تهدف إلى التعبير الفني الأصيل أو تحرير الروح، بل تهدف إلى التلاعب بالوعي الجماهيري وإدماج الأفراد في النظام الاقتصادي والاجتماعي القائم. يتم هذا التلاعب عبر خلق "هوية زائفة" بين العام والخاص. وبالتالي تصبح الثقافة الجماهيرية امتداداً للنظام الاقتصادي، حيث يتحول الترفيه إلى وسيلة لإعادة شحن طاقة العامل ليتمكن من الاستمرار في دورة العمل والاستهلاك.

في العصر الحالي، تتجسد صناعة الثقافة في خدمات البث التدفقي مثل نتفليكس (Netflix) وسبوتيفاي (Spotify)، حيث أصبح الوصول إلى الأعمال الثقافية يتم عند الطلب بدلاً من التملك. يشير التحليل النقدي إلى أن هذا التنوع الظاهري هو في الحقيقة توحيد يتحقق من خلال الخوارزميات التي توجه الأذواق وتضمن أن المنتجات الثقافية لا تشكل تحدياً للنظام. كما أن وسائل التواصل الاجتماعي تلعب دوراً حاسماً، حيث تُحوّل الأنماط المعيشية (كالموضة والجمال) إلى سلع واجبة الاستهلاك، وتساهم في تسليع الذات (Commodification of Self). إذ يُصبح الشخص نفسه "محتوى" يتم تسويقه وتميطه وفقاً لمتطلبات المنصة ورأس المال، مما يرسخ فكرة التوافق بدلاً من التفكير النقدي.

2/ التشيؤ والاغتراب (Reification & Alienation)

التشيؤ هو مفهوم استلهمته المدرسة النقدية، خاصة من لوكاش (Lukács)، لوصف العملية التي تأخذ فيها العلاقات الاجتماعية والإنسانية شكل "الشيء" (Thing) وتكتسب "موضوعية شبحية" (Phantom Objectivity) تخفي طبيعتها الإنسانية الأصلية. هذا التشيؤ يظهر في بيئة العمل، حيث يفقد الأفراد السيطرة على منتجات عملهم ويشعرون بالاغتراب (Alienation). إذ يتم فرض "شكل السلعة" على الأفراد، ليصبح هذا المنطق طبيعتهم الثانية التي يتصرفون ويفكرون ويشعرون وفقاً لها. وسع أدورنو نطاق هذا المفهوم ليشمل كيف أن المنطق التشيؤي للرأسمالية لا يقتصر على الإنتاج، بل يشوه حتى حسنا بالهوية وطرق تفاعلنا مع الأشياء ذات القيمة.

يمثل اقتصاد المنصات مثلاً معاصراً ومهماً لظاهرة التشيؤ. حيث يتم تجريد العاملين (Gig Workers) من أي علاقة مباشرة أو شخصية مع الشركة، مما يعمق إحساسهم بالاغتراب. فبدلاً من التفاعل مع زملاء أو إدارة واضحة، يتفاعل العامل مع نظام آلي يحدد شروط عمله وأجره. تستخدم المنصات "نظام التلميحات" (Nudges) والقواعد التعسفية للتحكم في سلوك العمال. ويُعتبر هذا النقص في الشفافية والاستقلال شكلاً حديثاً من التشيؤ، حيث يُعزل العامل فيشعر بالعجز واليأس. إن تجريد علاقة العمل وتحويلها إلى مجرد بيانات ومدخلات لنظام خوارزمي يخدم بشكل استراتيجي الشركة، التي تضمن بذلك انخفاض الأجور وضعف قوة التفاوض لدى العامل.

3/ الإنسان أحادي البعد (One-Dimensional Man)

يقدم هريبرت ماركوزا هذا المفهوم في كتابه "الإنسان أحادي البعد: دراسات في أيديولوجية المجتمع الصناعي المتقدم" الصادر عام 1964. يقدم فيه ماركوزا نقداً واسع النطاق لكل من المجتمع الرأسمالي المعاصر في الكتلة الغربية والمجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفيتي آنذاك، موثقاً الصعود المتوازي لأشكال جديدة من القمع الاجتماعي في كلا المجتمعين، وتراجع الإمكانات الثورية في الغرب. يرى ماركوزا بأن "المجتمع الصناعي المتقدم" يعمل على خلق "حاجات زائفة" (False Needs) تُفرض على الأفراد باستخدام وسائل الإعلام والإعلان والإدارة الصناعية وأنماط التفكير المعاصرة، مما ولّد واقعاً أحادي البعد للفكر والسلوك، يعمل على إضعاف الاستعداد والقدرة على التفكير النقدي والمعارضة لدى الفرد، ويُدمجه في نظام الإنتاج والاستهلاك السائد، ما يمنعه من تطوير "الوعي الثوري" ويجعله متوافقاً مع النظام المسيطر، الأمر الذي يخدم في النهاية مصالح الرأسمالية وسيطرتها.

ويُشير ماركوزا إلى ظاهرة "النقادم المُخطط له" (Planned Obsolescence) كدليل محوري على إدانته لسيطرة النظام الرأسمالي الاستهلاكي على وعي وحرية الفرد في المجتمع الصناعي. حيث يتم تصميم وتصنيع المنتجات بطريقة تجعلها تصبح عديمة الفائدة أو غير مواكبة للموضة أو غير صالحة للاستخدام بعد فترة زمنية محددة أو قصيرة نسبياً. الهدف من ذلك هو إجبار المستهلك على شراء منتج جديد، مما يحافظ على دورة إنتاج واستهلاك مستمرة ويزيد من أرباح الشركات. فمثلاً يتم تصميم المنتجات، وخاصة الإلكترونيات والهواتف الذكية، بحدود برمجية أو قيود مادية لضمان فترة صلاحية قصيرة. هذه الممارسة لا تشجع فقط على الاستهلاك غير الضروري وهدر الموارد، بل هي في جوهرها أداة سلطوية تسيطر على الأفراد وتفرض عليهم مطاردة دائمة للاتجاهات والتكنولوجيا الجديدة، مما يرسخ تبعيتهم لديكتاتورية السوق.

4/ العقلانية الأداة (Instrumental Reason)

يُعد مفهوم العقلانية الأداة الذي صاغه هوركايمر وأدورنو، أحد أهم المفاهيم التحليلية السوسيولوجية، والذي يتناول تتغلغل العقلانية الأداة في كل جزء من الحياة اليومية، لتعمل كمبدأ تنظيمي شامل. ففي المجتمع الحديث يتم استبعاد التفكير في الغايات والقيم لصالح التركيز المفرط على الوسائل والكفاءة والمنطق التقني. ويؤدي هذا إلى إضفاء الطابع الموضوعي (Objectivating) على العلاقات الاجتماعية. فالبيروقراطي ورجل الأعمال يتعاملان مع الأفراد بوصفهم مجرد "أشياء بشرية" (Human Objects) لتطبيق القواعد غير الشخصية. وتظهر العقلانية الأداة بوضوح في سيادة مؤشرات الأداء الرئيسية (KPIs) (key performance indicator) في بيئات العمل، حيث يُقاس نجاح الفرد وكفاءته بشكل تجريدي، متجاهلاً المعنى الإنساني للعمل. كما تتجسد في الأنظمة التكنولوجية المعقدة التي تجرد الإنسانية لصالح الوظيفة البحتة، مما يؤدي إلى قمع المقاومة والتكيف القسري مع نظام الاستغلال.

5/ استعمار عالم الحياة (Colonization of the Lifeworld)

يُعد مفهوم "استعمار عالم الحياة" من المفاهيم الأساسية التي قدمها "يورغن هابرماس" في كتابه الشهير "نظرية الفعل التواصلي" (The Theory of Communicative Action) الذي صدر عام 1981. يستخدم هابرماس هذا المفهوم لتشخيص الأمراض الاجتماعية في المجتمعات الحديثة، حيث يقوم تحليل يورغن هابرماس للمجتمع الحديث على نموذج ثنائي يميز بين عالم الحياة (Lifeworld)، وهو المجال الثقافي والمعرفي الذي يُدار منطقياً عبر الفعل التواصلي الهادف إلى التفاهم المتبادل، وبين النظام (System)، المتمثل في الاقتصاد والسياسة (الدولة)، الذي يعمل بمنطق الأداء والكفاءة ويوجهه "المال والسلطة". يُمثل "استعمار عالم الحياة" الحالة المرضية حيث يغزو منطق النظام التكنولوجي والاستراتيجي، الذي يحكمه المال والسلطة، المجالات اليومية لعالم الحياة (التي ينبغي أن تُترك للتفاهم والتفاعل الاجتماعي). هذا الغزو يحول التفاعلات البشرية التواصلية إلى تفاعلات تقنية أو استراتيجية، مما يُنتج "آثار تشيؤ مرضية" ويؤدي إلى فقدان المعنى والشعور بالأنوميا (Anomie)، حيث يُصبح المخزون الثقافي عاجزاً عن توفير مخططات تفسيرية كافية للحياة المعقدة، نتيجة لتشويش العلاقات وفقدان المعنى في الحياة اليومية.

وفي سياق العصر الرقمي، يجد هذا الاستعمار تجسيدا قوياً من خلال ظاهرة التعقب اللصيق (Invasive Tracking) لأدق تفاصيل حياتنا وأنشطتنا اليومية (شبكات التواصل، وأنماط الاستهلاك، والحركة). حيث يتم تحويل الحياة الخاصة للأفراد إلى بيانات قابلة للقياس والتحكم؛ وبذلك، يتم إخضاع التفاعل الإنساني لمنطق النظام الذي يوجه الأفراد خفية عبر هذه البيانات، مما يقوّض أساس الآراء الخاصة والأصيلة اللازمة لتشكيل مجال عام ديمقراطي سليم. يرى هابرماس أن هذا التحول يُعزز التشيؤ ويُحوّل التواصل ذاته عن غايته وهي التفاهم إلى مجرد أداة للكفاءة النظامية والاستراتيجية، مما يؤكد تسييب (Technicizing) الحياة اليومية وتدهور أساس الحرية والتفاعل العقلاني في المجتمع الحديث.

المحاضرة السادسة/ خطابات الحياة اليومية وأساليب تحليلها

خطابات الحياة اليومية هي الآلية الفعلية التي تُترجم من خلالها البنى الاجتماعية الكلية، مثل الطبقة والسلطة والنوع الاجتماعي، إلى تفاعلات مجهرية (Microsociological Interactions) قابلة للملاحظة والتحليل، حيث يُبنى الواقع المشترك ويُعاد إنتاجه.

أولاً/ مفهوم الخطاب في سوسيولوجيا الحياة اليومية

يُعرّف الخطاب (Discourse) في أبسط صوره على أنه اللغة قيد الاستخدام؛ أي مجموعة من العبارات والكلمات التي تشكل وحدة متماسكة في سياق معين. ومع ذلك، يتبنى علم الاجتماع تعريفاً أعمق للخطاب، حيث ينظر إليه كممارسة اجتماعية، فالخطاب ليس محصوراً فقط في ما يُقال، بل يمتد ليشمل كيف يُقال، ومتى يُقال، والأهم من ذلك، من يمتلك السلطة لقوله. إذ يُعد خطاب الحياة اليومية تجلياً واضحاً لمفهوم "البناء الاجتماعي" (Social Construction)، فهو الوسيلة التي يتم من خلالها بناء الواقع المشترك (Shared Reality). فالمحادثات العادية، والمناقشات حول الطقس أو العمل، تُحوّل التجارب الذاتية للأفراد إلى حقائق موضوعية مقبولة اجتماعياً، مما يضمن استمرارية النظام.

قدم ميشيل فوكو (Michel Foucault) منظوراً ثورياً للخطاب، متجاوزاً النظرة التقليدية التي تراه مجرد أداة للتعبير. حيث عرّف فوكو الخطاب على أنه "ممارسات تُشكّل بانتظام الأشياء التي نتحدث عنها" وهذا يعني أن الخطاب لا يصف الأشياء فحسب، بل إنه يخلقها ويفرد لها حيز الوجود الاجتماعي. وفقاً لمنظور فوكو، تُعتبر كل الأقوال أو الممارسات التي لها معنى، والتي تنتج أو تُنشئ شروطاً لظهور أقوال وممارسات أخرى، خطاباً. على سبيل المثال، الخطاب "الطبي" أو "القانوني" لا يتحدث فقط عن الأمراض أو الجرائم؛ بل هو الذي يحدد ما يُعتبر مرضاً، وما هي المعايير التي تجعل الفعل "جريمة"، وبالتالي، فإنه يُنشئ موضوعات دراسته الخاصة. كما يُعتبر الخطاب اليومي أيضاً بمثابة، الموقع الذي تُمارس فيه السلطة وتُقاوم فيه، فهو ليس شيئاً محايداً، بل يحمل بصمات التراتبية الاجتماعية والمؤسسية التي تُشرّع أنواعاً معينة من المعرفة والسلوك وتهمل أنواعاً أخرى.

ويُعد التحليل النقدي للخطاب، المرتبط بأعمال باحثين مثل "روث ووداك" (Ruth Wodak)، إضافة هامة لسوسيولوجيا الحياة اليومية، إذ يؤكد هذا المنهج على أن الخطاب وسيلة لإنتاج وإعادة إنتاج الهيمنة واللامساواة الاجتماعية. فإذا كان الخطاب هو ممارسة تنتج الأشياء التي نتحدث عنها، فهذا يعني أن الأيديولوجيات الكبرى، مثل الليبرالية الجديدة أو القومية، لا تقتصر على أنظمة الخطاب المؤسسية، بل يتم دمجها وتطبيعها في النقاشات والمحادثات اليومية العادية. ذلك أن التفاعلات اليومية هي البيئة الحاضنة التي يتلقى فيها الفرد هذه الأيديولوجيات كجزء من الفطرة السليمة (Common Sense)، حيث تتحول البنى الكبرى (Macro-Structures) إلى حقائق مُعاشة ومسلم بها في الروتين الصغير (Micro-Routine) في الحياة اليومية.

ويمثل ظهور خطاب الفضاء السيبراني والرقمي تحدياً منهجياً للمنظور السوسيولوجي، ذلك أن الخطاب الرقمي مثل التفاعلات عبر وسائل التواصل الاجتماعي والدرشات يعتمد بشكل كبير على "النصوص" المكتوبة. ولكن لا يعني ذلك أن نعتمد فقط على دراسة التفاعلات عبر الإنترنت كنصوص، بل يجب على سوسيولوجيا الحياة اليومية أن تتعامل مع تحليل النص الرقمي مع الأخذ بعين الاعتبار غياب الجوانب الجسدية في التفاصيل، وكيف تعوض الرموز التعبيرية (Emojis) والوسائط المتعددة جزئياً عن هذا النقص في التواصل غير اللفظي.

ثانيا/ أشكال خطابات الحياة اليومية:

تتجلى خطابات الحياة اليومية في أشكال متعددة، يمكن تقسيمها إلى لفظية وغير لفظية، بالإضافة إلى الشكل الرقمي الحديث الذي يمزج بينهما.

1/ الخطاب اللفظي في الحياة اليومية:

أ/ **المحادثات العادية وغير الرسمية (Casual and Informal Conversations):** تُعد المحادثات العادية والثرثرة أساس الحياة اليومية، فهي الروتين الذي لا غنى عنه لإعادة تأكيد الروابط الاجتماعية. تتميز هذه المحادثات بالتلقائية، والافتقار إلى الأهداف الرسمية المحددة مسبقاً، ومرونة تناوب الأدوار (Flexible Turn-taking). كما تلعب الثثرة دوراً هاماً في تحديد الحدود الأخلاقية للمجموعة وتزوير المعلومات الاجتماعية، مما يساهم في بناء التماسك الداخلي.

ب/ **المحادثات المنظمة (Organized Conversations):** تحدث هذه المحادثات ضمن إطار مؤسسي أو هدف محدد، مثل مقابلة العمل، وجلسة الاستشارة القانونية، أو البيئة الأكاديمية. في هذه الحالات، تكون قواعد تناوب الأدوار أكثر صرامة وأقل مرونة من الحديث العادي، وعادةً ما يكون لدى أحد الأطراف سلطة مؤسسية أكبر في توجيه الحديث وتحديد الموضوعات والنتائج. حيث يكشف تحليل المحادثات المنظمة كيف يتم استخدام اللغة لإنفاذ السلطة والمعايير المؤسسية.

ج/ **الأفعال الكلامية (Speech Acts):** تركز نظرية أفعال الكلام (Speech Act Theory) حسب مؤسسها "جون أوستن" (J.L. Austin) على فكرة أساسية وهي أن اللغة ليست مجرد وصف سلبي للواقع، بل هي فعل في حد ذاته. فالأفعال الكلامية (مثل الوعد، والأمر، والإعلان) لها قوة إجرائية في تغيير الواقع الاجتماعي. على سبيل المثال، قول القاضي "أعلنك مداناً" هو فعل يغير الوضع الاجتماعي والقانوني للشخص. ففي الحياة اليومية، تشمل هذه الأفعال: الأفعال الالتزامية (Commissives) مثل التعهد، والأفعال التعبيرية (Expressives) مثل الاعتذار. إن تحليل هذه الأفعال يكشف عن الكيفية التي يعيد بها الأفراد تنظيم توقعاتهم والتزاماتهم الاجتماعية تجاه بعضهم البعض وتأسيس النظام الأخلاقي المشترك في الحياة اليومية.

2/ الخطاب غير اللفظي في الحياة اليومية:

يُعد الخطاب غير اللفظي عنصراً حاسماً في التفاعل، حيث يوفر السياق (Context) وغالباً ما يكشف عن التوترات والمعاني التي قد يحاول الخطاب اللفظي إخفاءها.

أ/ **تعابير الوجه والإيماءات (Facial Expressions and Gestures):** تؤدي تعابير الوجه دوراً مزدوجاً، فبعضها قد يكون شاملاً ثقافياً (مثل التعبير عن الفرح أو الحزن)، بينما تخضع معظم الإيماءات لقواعد ثقافية محددة يتم تعلمها اجتماعياً.

ب/ **حركات الجسد (Body Movements):** يُعتبر الجسد بأكمله بمثابة مسرح للأداء الاجتماعي، فحركات الجسد، مثل طريقة المشي، والجلوس، تنتقل رسائل ضمنية حول الوضع الاجتماعي، والثقة، والمزاج العام، وهي جزء لا يتجزأ من عملية إدارة الانطباع في الحياة اليومية.

ج/ **التواصل بالعين (Eye Contact):** التواصل بالعين هو منظم قوي للتفاعل، إذ يُشير إلى الانتباه، ويحدد من هو التالي في دور الحديث، وفي كثير من الأحيان، يعكس علاقات السلطة. وفي العديد من السياقات الثقافية يشير الاتصال المطول والمباشر بالعين إلى التحدي أو العدوان، بينما يمكن أن يكون تجنبه علامة على الاحترام أو الخضوع للسلطة الاجتماعية.

د/ المسافة الشخصية (Personal Distance): لدراسة كيف يستخدم الأفراد المسافة المادية في التفاعل الشخصي، وكيف تؤثر الخلفيات الثقافية المختلفة على تصور وتنظيم هذا الفضاء في الحياة اليومية، نلجأ إلى عالم الأنثروبولوجيا "إدوارد تي. هول" (Edward T. Hall) الذي تناول هذا المفهوم بعمق، حيث يشير إلى أن تنظيم المسافة الشخصية يحدد نطاق السلوكيات الاجتماعية الممكنة في أي تفاعل، وقد حدد أربعة نطاقات للمسافة الشخصية، ولكل منها وظيفة اجتماعية مميزة:

_المسافة الحميمة (Intimate Distance): تتراوح من 0 إلى 18 بوصة (أو 1.5 قدم). هذه المنطقة محجوزة للعلاقات الوثيقة جداً (الأهل، والشركاء الرومانسيون) وتدل على الثقة المطلقة أو التهديد الجسدي.

_المسافة الشخصية غير الرسمية (Personal-Casual Distance): تتراوح من 1.5 إلى 4 أقدام. وهي المسافة المريحة المستخدمة للأصدقاء المقربين والمعارف وللمحادثات العادية.

_المسافة الاجتماعية/الاستشارية (Social-Consultative Distance): تتراوح من 4 إلى 12 قدماً. تستخدم للتفاعلات المهنية أو التجارية أو الجماعية وتتطلب نبرة صوت أعلى.

_المسافة العامة (Public Distance): تزيد عن 10 أقدام (أو 12 قدماً). تستخدم للخطابة الجماهيرية والمناسبات الرسمية.

تُظهر أبحاث "هول" أن هذه النطاقات تتأثر بشدة بالاختلافات الثقافية (فمثلاً، يميل الأمريكيون إلى الحفاظ على مسافة أكبر في التفاعل الاجتماعي مقارنة باللاتينيين أو الأوروبيين). ويُعد انتهاك هذه الحدود المقبولة شكلاً من أشكال التخريب التفاعلي غير اللفظي الذي يخلق الانزعاج ويهدد النظام الأخلاقي للتفاعل.

3/ خطاب الفضاء السيبراني والرقمي في الحياة اليومية:

مع التطور التقني، ظهر الخطاب الرقمي كشكل جديد وأساسي للتفاعل الاجتماعي في الحياة اليومية. حيث أدخل الفضاء السيبراني أبعاداً جديدة لتنظيم التفاعل؛ مثل الخطاب المتزامن (Synchronous Discourse) الذي يحدث في الوقت الفعلي (كالمكالمات الصوتية أو الدردشة المباشرة)، مما يتطلب استجابة فورية، والخطاب غير المتزامن (Asynchronous Discourse) كرسائل البريد الإلكتروني أو المنشورات فيتيح للفاعلين وقتاً أطول للتفكير في استجاباتهم، مما يزيد من قدرتهم على إدارة الانطباعات وتشكيل هوياتهم بدقة أكبر. كما يؤدي الفضاء السيبراني أيضاً إلى تغيير جذري في تجربة الزمن الاجتماعي، حيث يصبح التواصل فوراً تقريباً، مما يسرع من إيقاع الحياة اليومية.

كما تعمل المنصات الرقمية على تغيير الطريقة التي تُبنى بها الهويات وتُدار العلاقات والمجموعات. على سبيل المثال، يمكن للأفراد استخدام حسابات متعددة (كحسابين بريد إلكتروني أو رقمي هاتفي) لترسيم مناطق أمامية وخلفية رقمية (Front and Back Regions) في التفاعل الاجتماعي، مما يعكس محاولاتهم لإدارة انطباعاتهم أمام جماهير مختلفة، طبقاً لمنظور التفاعل الدرامي عن غوفمان.

ثالثاً/ أساليب تحليل الحوار والخطاب اليومي في سوسيولوجيا الحياة اليومية

هناك العديد من الأساليب التي طورها علماء الاجتماع لتحليل وفهم الخطاب اليومي بدقة، والتي تركز على النقاط وتفسير التفاصيل الدقيقة للتفاعل في الحياة اليومية، أهمها:

1/ التحليل التفاعلي الرمزي: ينطلق هذا الاتجاه من فكرة أن المعنى لا يكمن في الأشياء ذاتها، بل ينشأ من خلال التفاعل الاجتماعي، وأساسه اللغة. فعندما أقول "صباح الخير" لزميلي، فأنا لا أنقل معلومة فقط، بل أقوم بفعل اجتماعي من خلاله أعتز بوجوده، وأجدد علاقتي به، وأؤكد انتماءنا المشترك لإطار زمني (الصباح) واجتماعي (مكان العمل). بل ونجد أن بعض رواد التفاعلية الرمزية مثل إرفنج غوفمان ذهبوا أبعد من ذلك، فأروا في الحياة اليومية مسرحاً للتفاعل الدرامي، حيث نحن جميعاً ممثلون نستخدم الخطاب لتقديم "الذات" وإدارة الانطباع. فحوارك مع أستاذك يختلف في ألفاظه وتراكيبه عن حوارك مع صديقك في المقهى، لأنك تقدم ذاتاً مختلفة في كل مشهد.

2/ التحليل الإيثنوميثودولوجي: أسس هذا المنهج هارولد غارفينكل، ويرتكز على الكيفية التي يبني بها الناس سويماً، ومن خلال تفاعلاتهم الكلامية، شعورهم بالنظام والواقع المشترك. إذ يهتم بـ "الطرائق الشعبية" التي يستخدمها الناس في خطاباتهم وحواراتهم اليومية. وفي هذا الصدد طلب غارفينكل من طلابه أن يتصرفوا كأنهم نزلاء في بيوت أهاليهم! فكانت النتيجة ارتباك وغضب أهاليهم، لأنهم خرقوا القواعد الضمنية للحوار العائلي. هذا يظهر أن خطابنا اليومي يعمل كطقس اجتماعي يعزز الاستقرار والتفاهم المشترك.

3/ تحليل المحادثة: تحليل المحادثة (Conversation Analysis) أسسه هارفي ساكس مع زملائه إيمانويل شيفلوف، وجيل جيفرسون. هذا الأسلوب هو الأكثر دقة وتفصيلاً في دراسة وتحليل المحادثة اليومية. ويعتمد على عناصر الأساسية للتحليل هي: تبادل الأدوار (Turn-Taking): كيف نعرف متى نبدأ الكلام ومتى نصمت؟ هناك "نقاط انتقال محتملة" يتم تحليلها سوسيوولوجياً لفهم موازين القوى في الحوار.

الأزواج المتلازمة (Adjacency Pairs): وهي بنية مكونة من جزأين (سؤال/جواب، تحية/رد التحية، دعوة/قبول أو رفض). فإذا وجهت "دعوة" ولم يأت الرد فوراً بـ "نعم"، فإن الصمت لثانية واحدة يُفسر سوسيوولوجياً كتمهيد للرفض.

الإصلاح (Repair): أي العمليات التي يقوم بها المتحدثون لتصحيح سوء الفهم أثناء الحوار، وهو ما يحافظ على التماسك الاجتماعي أثناء المحادثات اليومية.

المحاضرة السابعة/ الحياة اليومية والضغط النظامية

النظام الاجتماعي هو ما يجعل الحياة اليومية تسير بشكل منظم ومتوقع ومستمر، ويتم تكريسه عبر التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي الرسمي وغير الرسمي من خلال المؤسسات الاجتماعية. وفي سوسيوولوجيا الحياة اليومية نسعى لفهم كيف يتحول النظام الاجتماعي من مجرد نصوص قانونية ومؤسسات بيروقراطية إلى ممارسات جسدية، وطقوس تفاعلية، ومشاعر داخلية. وفيما يلي سنغوص في الديناميكيات المعقدة التي تحكم علاقة الفرد بالنظام، وسنستكشف كيف أن "النظام" ليس مجرد شُرطي يحمل عصاً، بل هو نظرة عين في مصعد، وطريقة جلوس على مائدة عشاء، وتوقعات "مفهومه ضمناً" تخلق سجننا اليومي المريح. وفي المقابل، سنرى كيف أن "المقاومة" ليست دائماً ثورة في الميادين، بل قد تكون صمتاً مدروساً، أو تلكؤاً في العمل، أو نكتة تُهمس في الكواليس.

1/ آليات تكريس النظام الاجتماعي في الحياة اليومية:

إن الآليات التي تُفَعِّل وتُديم النظام الاجتماعي (Social Order) في الحياة اليومية هي أساساً مجموعة من العمليات والوسائل التي تهدف إلى الضبط الاجتماعي (Social Control) وضمان التوافق والتماسك بين الأفراد والجماعات، وذلك وفقاً للمعايير والقيم السائدة. ويصنف علماء الاجتماع هذه الآليات عادةً ضمن محورين رئيسيين، هما الضبط الاجتماعي الرسمي والضبط الاجتماعي غير الرسمي، ويسبقهما عملية التنشئة الاجتماعية الأساسية.

1-1/ التنشئة الاجتماعية: تُعد التنشئة الاجتماعية هي الآلية الأساسية لتفعيل النظام الاجتماعي وضمان استمراريته. وهي عملية مستمرة يتعلم من خلالها الفرد قيم، معايير، أدوار، ولغات مجتمعه، مما يجعله قادراً على التكيف والسلوك بطريقة مقبولة اجتماعياً. وهدفها هو الضبط الداخلي للفرد، أي غرس القواعد الاجتماعية بحيث تصبح جزءاً من الوعي الذاتي للفرد (الضمير)، وبالتالي يلتزم بها تلقائياً. ومن مؤسساتها الرئيسية (وكلاء التنشئة):

الأسرة: المؤسسة الأولى والأكثر تأثيراً في نقل الثقافة والقيم.

المدرسة والتعليم: نقل المعارف والمهارات، وتعزيز الانضباط واحترام السلطة.

جماعات الأقران: التأثير على السلوك من خلال التوقعات المتبادلة.

وسائل الإعلام: تشكيل الرأي العام وتوحيد الرؤى الثقافية.

2-1/ آليات الضبط الاجتماعي: هي الأساليب التي يستخدمها المجتمع لـ تنظيم السلوك، ومنع الانحراف، وتعزيز القوى الداعمة لاستقراره وتماسكه، ويشمل: الضبط الاجتماعي غير الرسمي وهو الأكثر انتشاراً وتأثيراً في الحياة اليومية، ويتم بشكل عفوي وتلقائي من قبل أفراد المجتمع ككل. والضبط الاجتماعي الرسمي الذي تمارسه الدولة والمؤسسات الرسمية من خلال قواعد مكتوبة وصريحة، ويتم تطبيقه من قبل وكلاء متخصصين.

3-1/ المؤسسات الاجتماعية: المؤسسات الاجتماعية (كالأسرة، والدين، والتعليم، والاقتصاد، والسياسة) هي البنى الأساسية للمجتمع التي تنظم جوانب الحياة. وهي ليست آليات ضبط بحد ذاتها، بل هي الأوعية التي تحتوي وتفعّل آليات الضبط والتنشئة. وتتمثل وظيفتها في تحديد الأدوار الاجتماعية والمكانات، وتوفير نماذج ثابتة ومتوقعة للتصرف في مختلف المجالات.

2/ الخضوع للضغوط النظامية:

1-2/ آليات الامتثال في مسرح التفاعل الاجتماعي:

في كتابه التأسيسي "تقديم الذات في الحياة اليومية" الذي تناولناه في المحاضرات السابقة، يفكك غوفمان فكرة "الذات الحقيقية". فبالنسبة له، الذات ليست جوهرًا ثابتًا، بل هي أثر درامي ينشأ من أداء الممثل في مشهد معين. ويرى أننا ممثلون على خشبة مسرح الحياة، نسعى باستمرار لـ "إدارة الانطباع" الذي نتركه لدى الجمهور (الآخرين). فنحن نمثل للقواعد الاجتماعية ليس بالضرورة إيماناً بقديسياتها، بل لأننا نريد أن يتم تعريفنا كأشخاص طبيعيين، وعقلانيين، وجديرين بالثقة. فالفشل في إدارة الانطباع يؤدي إلى الإحراج، وهو شعور اجتماعي قاهر يعادل الألم الجسدي. والخضوع هنا هو عمل استراتيجي يهدف لتجنب الوصمة ولضمان استمرار التفاعل.

ويستخدم الأفراد ترسانة من التقنيات لإدارة الانطباع، منها:

_ إخفاء المشاعر (Suppressing Emotions): مثل كتمان الغضب أمام المدير للحفاظ على صورة الموظف المهني.

_ التملق (Flattery): مثل مدح الآخرين لكسر الحواجز وكسب الرضا.

_ الامتثال للرأي (Opinion Conformity): تبني آراء المجموعة لتجنب الظهور بمظهر الشاذ أو المتمرّد.

ويقسم غوفمان الفضاء الاجتماعي إلى منطقتين متميزتين تحكمان سلوكنا، وهما محوريتان لفهم كيفية عمل النظام الاجتماعي:

* منطقة المسرح الأمامية: هي المكان الذي يجري فيه الأداء الرسمي أمام الجمهور. هنا، يلتزم الفرد بأقصى درجات الضبط الذاتي، ويحرص على "اللباقة" و"التهذيب". في هذه المنطقة، تخضع الأجساد والكلمات لرقابة صارمة. مثلاً: النادل في مطعم فاخر حين يبتسم، ويتحرك بخفة، ويتحدث بصوت منخفض، مؤدياً دور "الخادم المطيع والمحترف". وأي خروج عن النص هنا (مثل التثاؤب، أو الجلوس باسترخاء) يهدد بانهيار تعريف الموقف. وكل ذلك ينم عن الخضوع للنظام الاجتماعي القائم على توقعات الجمهور.

* منطقة المسرح الخلفية: هي منطقة الكواليس حيث يخلع الممثل قناعه، وحيث لا يوجد جمهور لمراقبته، وهنا يمكن للمرء أن "يخرج عن الدور". مثلاً نفس النادل، بمجرد دخوله المطبخ (المنطقة الخلفية)، قد يغير تعابير وجهه، ويشتم الزبون "المزعج"، أو يسرق لقمة من الطعام. وحسب غوفمان؛ المنطقة الخلفية ليست نفاقاً، بل هي ضرورة وظيفية للنظام، فلولا وجود مساحة للتنفيس والاسترخاء في الخلف، لما استطاع الأفراد تحمل ضغط الأداء المتواصل في المنطقة الأمامية. فالنظام الاجتماعي يسمح بـ "فسح صغيرة" من التمرد الخفي لضمان الخضوع التام في العلن.

2-2/ المكانة المهيمنة وتكلفة الامتثال:

المكانة المهيمنة هي مفهوم صاغه عالم الاجتماع الأمريكي إيفريت هيويز (Everett Hughes). وحسب هيويز المكانة المهيمنة هي سمة اجتماعية واحدة (سواء كانت اختيارية أو موروثية) تكتسب أسبقية مطلقة على جميع السمات والمكانات الأخرى التي يحملها الفرد (مثل مكانته المهنية، أو التعليمية، أو العائلية). حيث تُحدد المكانة المهيمنة "الهوية الأساسية" للفرد في نظر المجتمع وتصبح بمثابة "العدسة" التي يفسر بها الآخرون جميع سلوكياته وإنجازاته. وغالباً ما تكون المكانة المهيمنة مرتبطة بـ: العرق، أو الجنس، أو الإعاقة، أو الإجرام السابق (الوصم). فعلى سبيل المثال، "المجرم" أو "الشخص المُصاب بمرض عقلي" هي مكانة تهيمن على أي إنجاز مهني قد يحققه الفرد لاحقاً.

وفي هذا الصدد ليست كل "الأدوار" متساوية في تكلفة أدائها. فالفرد الذي يحمل "مكانة مهيمنة" موصومة يواجه ضغطاً مضاعفاً، كالطبيب الأسود في مجتمع عنصري، أو المرأة القيادية في بيئة ذكورية، حيث لا يتم تقييمهم فقط بناءً على أدائهم المهني، بل يتم النظر إليهم أولاً من خلال عدسة "العرق" أو "الجنس". وهذا يفرض عليهم جهداً إضافياً في "إدارة الانطباع" لنفي الصور النمطية السلبية. فعليهم أن يكونوا "أكثر كفاءة"، "أكثر هدوءاً"، و"أقل تهديداً" من نظرائهم. وهنا يضطر صاحب المكانة المهيمنة الموصومة غالباً إلى "استيعاب" توقعات الآخرين السلبية لتجنب الصدام. فقد تضطر المرأة لمقاطعة حديثها أقل من الرجل، أو الابتسام أكثر، لأن المجتمع يعاقبها بقسوة أكبر إذا انتهكت معايير "اللطيف" المتوقعة منها.

معنى ذلك أن المكانة المهيمنة ليست مجرد تسمية، بل هي قوة اجتماعية ضاغطة تُنشئ "تكلفة" إضافية لأداء الدور الاجتماعي. هذه التكلفة تتجلى في عبء التمثيل (الجهد الإضافي في إدارة الانطباع) والخضوع القسري (التنازل عن السلوك الطبيعي لتجنب العقاب). ففي ظل المكانة المهيمنة الموصومة، فإن "الخضوع والمقاومة" لا يختفيان؛ بل يتحول الخضوع إلى تكتيك للبقاء، وتُصبح المقاومة شكلاً من أشكال التمثيل المستمر الذي يهدف إلى إعادة التفاوض على معنى تلك المكانة.

2-3/ طقوس الخضوع في الفضاء العام:

أحد أروع تحليلات غوفمان للحياة الحضرية هو مفهوم "التجاهل المدني" (Civil Inattention). ففي المدن الكبرى المكتظة بالغرباء، ولكي نحافظ على النظام دون أن ننهار عصبيًا، يكون الحل هو طقس دقيق من الخضوع المتبادل. فعندما نلتقي بشخص غريب في الشارع أو المصعد، نمحّه نظرة سريعة لنعترف بوجوده (أنت لست شيئاً، أنت بشر)، ثم نسحب نظرنا فوراً لنقول (أنا لا أنوي التطفل عليك، ولا أشكل تهديداً). هذا "الطقس البصري" هو العقد الاجتماعي غير المكتوب للمدينة. فالحفاظ على هذه المسافة الرمزية هو ما يجعل الحياة العامة ممكنة. وأي خرق لهذا الطقس، سواء بالتحديق المستمر (الذي يُعتبر عدوانياً) أو بالتجاهل التام (الذي ينم عن الاحتقار)، يُعتبر تهديداً للنظام العام. فالتجاهل المدني هو خضوع جماعي لقاعدة "احترام الخصوصية في الحيز العام".

3/ مقاومة الضغوط النظامية:

على الرغم من سطوة آليات الامتثال، فإن البشر ليسوا "روبوتات ثقافية" مبرمجة كلياً. إذ تكشف سوسيولوجيا الحياة اليومية عن طيف واسع من المقاومة، تتراوح بين الإزعاج البسيط للقواعد، إلى الخرق المتعمد الذي يكشف هشاشة النظام.

3-1/ التخريب التفاعلي:

صاغ "ميتشل دونير" (Mitchell Duneier) و"هارفي مولوتش" (Harvey Molotch) مصطلح "التخريب التفاعلي" (Interactional Vandalism) لوصف ظاهرة دقيقة تحدث في شوارع نيويورك، ولكن يمكن تعميمها. حيث درس الباحثان التفاعلات بين رجال الشوارع (الباعة المتجولين أو المشردين، وغالباً من السود) والنساء المارّات (وغالباً من الطبقة الوسطى والبيض). حيث تعتمد المحادثة اليومية على قواعد ضمنية صارمة، أهمها "الأزواج المتجاورة" أو المتتابعة (Adjacency Pairs) مثل (تحية/رد تحية)، (سؤال/جواب). والشخص الذي يبدأ التحية يتوقع رداً، وله "سلطة" فرض التفاعل. وعندما يلقي الرجل المتشرد تحية أو تعليقاً ("مرحباً يا جميلة"، "كيف حالك اليوم؟")، تحاول المرأة غالباً تجاهله (ممارسة التجاهل المدني). لكن الرجل يُصر، ويكرر الكلام، ويغير موقعه ليعترض طريقها بصرياً، مستغلاً حقيقة أن تجاهل شخص يتحدث إليك بـ "أدب ظاهري" يعتبر وقاحة اجتماعية، فيضعها في مأزق: إما أن ترد (وتفتح باباً لا تريده) أو تتجاهل (وتبدو وقحة ومتعالية). هذا السلوك ليس مجرد تحرش، بل هو "تخريب" للنظام الطبقي والعرقي. فالرجل المهمش يستخدم قواعد "الأدب" ذاتها كسلاح لإرباك الطرف الأقوى وإجباره على الاعتراف بوجوده. إنه يخرق التراتبية الاجتماعية عبر التلاعب بالقواعد التفاعلية الدقيقة.

3-2/ تجارب خرق الأعراف:

إذا كان غوفمان قد أظهر لنا المسرح، فإن "هارولد غارفينكل"، مؤسس الإثنوميثودولوجيا، قد قرر تحطيم خشبة المسرح ليرى رد فعل الممثلين. حيث صمم غارفينكل "تجارب الخرق" (Breaching Experiments) لكشف "التفاهات الضمنية" التي تمسك

المجتمع ببعضه. حيث طلب غارفينكل من طلابه العودة إلى منازل عائلاتهم والتصرف لمدة 15 دقيقة إلى ساعة كأنهم "نزلاء" غرباء (Lodgers). وكان عليهم التحدث برسمة مفردة ("هل تسمح لي يا سيد والذي بأخذ قطعة من الخبز؟")، وعدم إظهار العاطفة، والتعامل ببرود وتهذيب مبالغ فيه. ولم تكن ردود أفعال العائلات مجرد استغراب أو ضحك، بل كانت مشاعر قوية من الغضب، والقلق، والاتهامات ("هل أنت مريض؟"، "لماذا تتصرف بوقاحة؟"، "هل تحتقنا؟")، إذ شعر الآباء بأن أساس علاقتهم قد ضُرب. كشفت هذه التجربة أن النظام العائلي والاجتماعي لا يعتمد على القوانين المكتوبة، بل على شبكة هشة من التوقعات الصامتة. والمقاومة هنا (عبر خرق التوقعات) أظهرت أن "الحالة الطبيعية" التي نشعر بها في المنزل هي إنجاز مستمر يتطلب تعاون الجميع. وعندما ينسحب فرد واحد من "اللعبة"، ينهار الواقع المشترك، مما يولد الذعر الأخلاقي.

3-3/ مقاومة الأدوار الجندرية

تعتبر الجندرية واحدة من أعمق ضغوط النظام الاجتماعي، حيث تملئ علينا كيف نلبس، وكيف نمشي، وكيف نتكلم. لذلك، فإن مقاومة الأدوار الجندرية في الحياة اليومية تعد شكلاً بارزاً من أشكال مقاومة الضغوط النظامية. ومن أبرز مظاهرها:

* افتتاح المساحات الذكورية:

في دراسة إثنوغرافية لافتة، تم رصد ظاهرة "متسابقات السيارات" (Girl Racers) في أبردين في المملكة المتحدة. مع العلم أن ثقافة تعديل السيارات والسباقات تُعتبر ثقافة ذكورية بامتياز، ودخول الفتيات إلى هذا العالم ليس مجرد هواية، بل هو فعل مقاومة. فهؤلاء الفتيات لا يكتفين بالجلوس في مقعد الراكب (الدور التقليدي)، بل يقدن سيارات معدلة، ويشاركن في النقاشات الفنية حول المحركات. فهن يتحددين الصورة النمطية للفتاة اللطيفة والسلبية. هذه المقاومة تُواجه غالباً بالسخرية أو العداء من طرف الذكور، مما يبرز أن مجرد "التواجد" في مساحة اجتماعية غير مخصصة لك هو فعل مقاومة للنظام الاجتماعي.

* الأداء الجندري المبالغ فيه:

تقدم عروض "الдраغ" (Drag) حيث يرتدي الرجال ملابس نسائية مبالغ فيها (Drag Queen) أو العكس (Drag King) مساحة أخرى للمقاومة. وحتى لو كان ذلك بقصد الترفيه إلا أنه في العمق يحمل مقاومة للنظام الاجتماعي. حيث يرى باحثون مثل "تومسون" و"أوستونر" بأن "الдраغ" ليس مجرد ترفيه، بل هو تفكيك لمفهوم الجندر نفسه. فعندما يبالغ المؤدي في "أنوثته" أو "رجولته" على المسرح، فهو يكشف أن الجندر هو "أداء" (Performance) وليس حقيقة بيولوجية ثابتة. والأهم من ذلك، أن الممارسين ينقلون هذه الثقة والجرأة إلى حياتهم اليومية، مما يسمح لهم بمقاومة الوصمة والخلل في تفاعلاتهم العادية حسب جوديث بتلر (Judith Butler)، وخاصةً في كتابها المؤثر "مشكلة الجندر: النسوية وتخريب الهوية" (Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity). وبالتالي يتحول الدراغ، بهذا المعنى، من مجرد ترفيه إلى فعل سياسي ثقافي يُعيد تعريف الجندر ك موقع مرّن للتعبير، ويُقدم استراتيجيات نفسية واجتماعية للأفراد الموصومين لتبني الثقة ومقاومة القواعد النظامية الصارمة.

* رفض المضايقات واستراتيجيات المرور:

- تعتبر "كارول بروكس جاردنر" (Carol Brooks Gardner) في كتابها "المرور" (Passing By) أن التحرش في الأماكن العامة هو وسيلة لتذكير النساء بمكانتهن الدونية في النظام الاجتماعي، وتعزيز للمكانة المهيمنة الذكورية في الفضاء العام. وغالباً ما تكون مقاومة التحرش في هذه الحالة غير علنية خوفاً من التصعيد العنيف، وتعتمد على التكتيكات التالية:
- _الجهل المصطنع: التظاهر بعدم سماع التعليق المسيء لحرمان المتحرش من رد الفعل الذي يبتغيه.
 - _الامتثال المسرحي: التظاهر بالموافقة أو الضحك للخروج من الموقف بأمان، مع الحفاظ على مسافة نفسية.
 - _إعادة تعريف الموقف: استخدام الفكاهة الساخرة لقلب الموقف وجعل المتحرش يبدو سخيفاً بدلاً من مخيف.
 - _الامتناع عن الابتسام: في ثقافة تطالب النساء بالابتسام واللفظ الدائم، يعد الوجه الجامد (Stone face) في الشارع شكلاً من أشكال "النضال الجسدي" لرفض دعوات التفاعل غير المرغوبة.

3-4/ المقاومة دون مواجهة في الحياة اليومية

- يرى عالم السياسة والأنثروبولوجيا الأمريكي "جيمس سي سكوت" (James C. Scott) في كتابه الشهير "أسلحة الضعفاء: الأشكال اليومية لمقاومة الفلاحين"، بأن التركيز الأكاديمي على الثورات الكبرى والانتفاضات المسلحة يعمينا عن رؤية المقاومة الحقيقية والمستمرة التي تمارسها الفئات المقهورة (الفلاحون، والعمال، والنساء). هؤلاء نادراً ما يملكون ترف المواجهة المباشرة التي قد تؤدي بحياتهم. بدلاً من ذلك، يستخدمون أسلحة خفية وذكية. حيث طور سكوت تحليله بالتمييز بين نوعين من الخطاب:
- _النص العلني (Public Transcript): وهو ما يُقال ويُفعل في حضور أصحاب السلطة. حيث يتميز بالخضوع، والمديح المبالغ فيه، والطاعة الظاهرية. هذا هو الوجه الذي يراه "النظام".
 - _النص الخفي (Hidden Transcript): وهو ما يدور خلف ظهور أصحاب السلطة، في المساحات الآمنة الخاصة بالمقهورين (المنازل، والمقاهي الشعبية). هنا يتم التعبير عن الغضب المكبوت، والسخرية من أصحاب السلطة، وأحلام الانتقام، وقصص البطولات المتخيلة.
- يؤكد سكوت أن وجود "النص الخفي" دليل على أن الهيمنة الثقافية (بالمعنى الغرامشي) نادراً ما تكون كاملة. فالمقهورون لا يصدقون بالضرورة أيديولوجيا السلطة، لكنهم يمثلون الخضوع من أجل البقاء. فالنص الخفي هو المكان الذي تُصان فيه الكرامة الإنسانية وتُزرع فيه بذور الثورة القادمة. فعندما يخرج النص الخفي إلى العلن (في لحظة غضب أو ثورة)، يحدث الانفجار الاجتماعي.

4/ الحياة اليومية كمساحة تفاوض على النظام الاجتماعي:

- نتناول هنا منظور بديل لا يرى الحياة اليومية كخضوع مطلق (وظيفية) ولا كمقاومة مستمرة (صراع)، بل كعملية تفاوض دائم لإعادة صياغة الواقع. هذا المنظور قدمه "أنسيلم شتراوس" (Anselm Strauss) وأطلق عليه مفهوم "النظام التفاوضي" (Negotiated Order). حيث يرفض شتراوس فكرة أن الهياكل الاجتماعية (مثل المستشفيات أو الشركات) تعمل وفق القواعد المكتوبة بجمود. بدلاً من ذلك، يرى أن القواعد هي مجرد إطار عام، أما العمل الفعلي فيتسم بتسييره عبر سلسلة لا تنتهي من

"المفاوضات" بين الأفراد. ففي دراسته الكلاسيكية للمستشفيات النفسية، وجد شتراوس أن الأطباء والمرضات والمرضى والإداريين ينخرطون في "صفقات" يومية. فقد تتجاهل الممرضة قاعدة إدارية لتسمح لمريض بالنوم متأخراً مقابل أن يلتزم بالهدوء، أو قد يغطي الطبيب على خطأ لزميله مقابل دعم في اجتماع قادم. فالنظام في المستشفى ليس اللائحة المعلقة على الحائط، بل هو مجموع هذه الاتفاقات المؤقتة والمتغيرة.

يمكن تطبيق هذا المنظور ببراعة على الحياة العائلية، وتحديدًا من خلال أعمال عالمة الاجتماع "أرلي هوتشايلد" (Arlie Hochschild) حول "المنابوة الثانية" (The Second Shift). حيث تصف هوتشايلد واقع النساء العاملات اللواتي يعدن للمنزل بعد يوم عمل شاق للقيام بـ "منابوة ثانية" من الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال. هذا المجال ليس مجرد ساحة للخضوع للنظام الأبوي، بل هو ساحة للتفاوض المستمر والمعقد. فقد تتظاهر الزوجة بالمرض أو التعب الشديد لإجبار الزوج على المشاركة في الأعمال المنزلية. وتشير هوتشايلد إلى أن التفاوض يتم بعمق حول "ما الذي يعتبر منة" وما الذي يعتبر "واجباً". فإذا قام الزوج بتغيير حفاظة الطفل واعتبر ذلك "مساعدة" منه لزوجته، فهو يفرض تعريفاً للنظام يتطلب منها "الامتثال". والتفاوض على النظام الاجتماعي هنا يكون عبر محاولة المرأة إعادة تعريف هذا الفعل كـ "واجب أبوي مشترك" لا يستوجب الشكر الخاص، بل هو جزء من العقد الزوجي الطبيعي.

المحاضرة الثامنة/ المدينة والحياة اليومية

المدينة ليست مجرد خلفية مادية صامتة تدور فيها أحداث حياتنا، بل هي قوة فاعلة تشكل وعينا، سلوكنا، وممارساتنا اليومية، وطريقة تفاعلنا مع الآخرين. وسنتناول فيما يلي أهم الرؤى السوسيولوجية بشأن الحياة اليومية في المدينة وآليات التفاعل اليومي الدقيقة فيها.

1/ جورج زيميل والحياة الذهنية في المدينة:

لا يمكننا الحديث عن سوسيولوجيا الحياة اليومية في المدينة دون العودة إلى المقال الشهير لـ "جورج زيميل" (Georg Simmel) بعنوان "المدينة والحياة الذهنية" (The Metropolis and Mental Life)، الذي نُشر عام 1903. حيث يُعد هذا المقال نصاً كلاسيكياً يحلل التأثير النفسي للمدينة الكبرى على الفرد. ويُقدم زيميل في هذا المقال تحليلاً دقيقاً ومتبصراً للتكيف النفسي والاجتماعي الذي يطوره سكان المدن الكبرى كاستجابة للخصائص المميزة للبيئة الحضرية. إذ تتسم المدينة الكبرى في منظور زيميل بما يلي:

ـ الكثافة السكانية العالية والتنوع البشري مما يعني زيادة هائلة في عدد التفاعلات.

ـ الوتيرة السريعة والتدفق المستمر للأحداث والمعلومات والمحفزات الحسية.

ـ الاعتماد على الاقتصاد النقدي الذي يغلف العلاقات الاجتماعية بصبغة عقلانية وحسابية محايدة.

ولتحليل الحياة اليومية في المدينة، قدم زيميل عدة مفاهيم أساسية:

* **الموقف المتبلد/اللامبالي (The Blasé Attitude):** هو الآلية النفسية الدفاعية الأساسية التي يطورها ساكن المدينة كاستجابة للزيادة الحسية والتدفق المفرط للمعلومات. ويُترجم هذا الموقف إلى اللامبالاة الظاهرة، والتخلي عن ردود الفعل العاطفية القوية، والصعوبة في التمييز بين الأشياء. و يصبح كل شيء رمادياً وغير مستحق للاستجابة العميقة، لأنه لو استجاب الفرد عاطفياً لكل محفز، لانهار عقلياً. هذا الموقف هو ما يفسر التباعد الاجتماعي والافتقار إلى الود في التفاعلات اليومية العابرة بالمدينة.

* **العقلانية والحساب (Rationality and Calculability):** يرى زيمل أن العقلانية هي السمة السائدة للحياة الذهنية في المدينة، على عكس الحياة الريفية التي تسودها العاطفة والتقاليد. حيث تتطلب المدينة الدقة والحساب الدقيق للوقت والالتزام بالمواعيد، وهي ضرورية لعمل الاقتصاد النقدي المعقد. فيصبح التعامل مع الآخرين مبنياً على المنفعة والتبادل الموضوعي بدلاً من العلاقات الشخصية الذاتية. ويساهم هذا في إضفاء طابع تجزيئي وغير شخصي على التفاعلات اليومية (مثل الشراء، وركوب المواصلات، والتعاملات البنكية).

* **الفردانية المفرطة (Exaggerated Individualism):** توفر المدينة درجة غير مسبقة من الاستقلالية الشخصية والتحرر من قيود الجماعة الأولية (الأسرة، القرية). إذ يجد الفرد فرصة لتحقيق الفردانية وتطوير نمط حياة فريد. وعلى الرغم من إيجابية هذا التحرر، إلا أن زيمل يشير إلى مفارقة أنه: بينما يتمتع الفرد بالحرية، فإنه في الوقت ذاته يصبح عرضة للذوبان في الحشد. ولتجنب ذلك، يسعى سكان المدينة إلى التميز الخارجي بالنزعة الفردية المفرطة عبر الغرابة في المظهر أو التفرد في السلوك (كارتداء ملابس لافتة أو تبني سلوكيات غير مألوفة) كوسيلة يائسة للفت الانتباه واستعادة القيمة الذاتية وسط بحر اللامبالاة في المدينة.

2/ لويس ويرث والحضرية كأسلوب حياة:

اعتبر رواد مدرسة شيكاغو وعلى رأسهم روبرت بارك (Robert Park)، وإرنست بيرجس (Ernest Burgess)، ولويس ويرث (Louis Wirth) المدينة مختبراً اجتماعياً طبيعياً، وعلى وجه الخصوص لويس ويرث في مقاله الشهير "الحضرية كأسلوب حياة" (Urbanism as a Way of Life)، الصادر عام 1938. حيث قدّم "ويرث" إطاراً منهجياً لتفسير كيف تؤثر الخصائص الديموغرافية والاجتماعية الهيكلية للمدينة بشكل مباشر على أنماط التفاعل والتنظيم الاجتماعي، ومن ثم على التجربة اليومية لسكانها.

يقوم تحليل ويرث على تحديد ثلاثة متغيرات هيكلية رئيسية للمدينة الكبرى، يرى أنها تساهم مجتمعة في تشكيل نمط حياة فريد هو "الحضرية"، وتتمثل هذه المتغيرات الثلاثة في:

_ **الحجم:** فكلما زاد حجم المدينة، زاد التنوع وقلت الحميمية في العلاقات الاجتماعية.

_ **الكثافة:** والتي تؤدي إلى التمايز والتخصص، ولكن أيضاً إلى الاحتكاك والصراع.

_ **اللاتجانس:** فالمدينة تجمع أشخاصاً من خلفيات متباينة، مما يضعف الروابط التقليدية (الأسرة والقبيلة) ويعزز الروابط الثانوية (الزمانة، المصالح).

ولتحليل الحياة اليومية في المدينة، قدم ويرث عدة مفاهيم أبرزها:

* **العلاقات الاجتماعية الثانوية بدلاً من الأولية:** فمع زيادة حجم المدينة، يصبح من المستحيل على الأفراد معرفة بعضهم البعض بشكل شامل أو شخصي. ففي الحياة اليومية الحضرية، تحل العلاقات الثانوية، التي تكون غير شخصية، وعابرة، وجزئية/وظيفية،

محل العلاقات الأولية (الموجودة في العائلة والجماعة الصغيرة). وتصبح التفاعلات مبنية على الدور الذي يلعبه الفرد (مثل بائع، وزميل عمل، وزبون) وليس على شخصه بالكامل. هذا يؤدي إلى تجزئة الشخصية في التفاعلات اليومية.

* **التخصص الاجتماعي (التقسيم الوظيفي للعمل):** إذ ترتبط الكثافة والتماييز بالتخصص الوظيفي، حيث تتنافس المجموعات والأفراد على مساحة محدودة وموارد متباينة. حيث تتطلب المدينة مستوى عالياً من تقسيم العمل في الحياة اليومية، ويجد الفرد نفسه مضطراً للاعتماد على عدد كبير من الغرباء المتخصصين لتلبية احتياجاته (طبيب متخصص، وسباك، وسائق، الخ). هذا التعقيد يزيد من الاعتماد المتبادل الهيكلي، ولكنه يقلل من الترابط العاطفي.

* **الانعزالية الاجتماعية والوحدة:** فعلى الرغم من كثافة التفاعل، فإن الطبيعة الجزئية وغير الشخصية للعلاقات تخلق مسافة عاطفية بين الأفراد. وهنا يُشير ويرث إلى المفارقة الحضرية: "نحن محاطون بالناس، لكننا وحيدون". هذا الشعور بالوحدة وسط الحشد هو سمة مميزة للتجربة اليومية الحضرية، ويتجلى في التباعد النفسي الذي يتبناه الأفراد كوسيلة لحماية خصوصيتهم في بيئة كثيفة.

* **نظام الرقابة الاجتماعية الرسمي:** فمع ضعف الروابط الأولية وزيادة التمايز (الثقافي والأخلاقي)، تنهار وسائل الرقابة الاجتماعية غير الرسمية (مثل العادات والتقاليد). وتصبح المدينة مضطرة للاعتماد على الرقابة الرسمية؛ أي القانون، والشرطة، والمؤسسات الرسمية (كالعقود المكتوبة). في الحياة اليومية، وهذا يعني أن التفاعلات تحكمها القواعد المكتوبة والإجراءات البيروقراطية بدلاً من الثقة المتبادلة والالتزامات الشخصية.

3/ هنري لوفيفر ونقد الحياة اليومية في المدينة:

يُقدم عمل هنري لوفيفر (Henri Lefebvre)، وخاصة في كتابه "نقد الحياة اليومية" (Critique of Everyday Life) الذي صدر في ثلاثة مجلدات بين عامي 1947 و1981، مقارنة نقدية وفلسفية-ماركسية في سوسيولوجيا الحياة اليومية في المدينة، إذ يُحوّل التركيز من وصف تأثيرات المدينة (كما فعل زيمل وويرث) إلى نقد الكيفية التي يتم بها إنتاج الحياة اليومية وإخضاعها ضمن النظام الرأسمالي الحديث. بالنسبة للوفيفر، الحياة اليومية ليست مجرد مجموعة من الأنشطة العادية؛ بل هي نتاج اجتماعي ونقطة التقاء بين المستويات المختلفة للمجتمع (الاقتصاد، والسياسة، والثقافة). وهو يسعى إلى "نقد" هذه الحياة، بمعنى فضح الآليات التي تجعلها مُستلبة (Alienated) ومُعاد إنتاجها بشكل روتيني، مما يخفي إمكاناتها الثورية.

ولتحليل الحياة اليومية في المدينة، قدم لوفيفر مجموعة من المفاهيم أبرزها:

* **الاستلاب أو الاغتراب:** أي أن الحياة اليومية في النظام الرأسمالي الحديث تتميز بـ الاغتراب. يعني هذا أن الأفراد لا يجدون معنى حقيقياً أو إشباعاً كاملاً في أنشطتهم اليومية. ويتجلى الاغتراب في الحياة اليومية الحضرية في العمل الرتيب (العمل المكتبي المجزأ)، والاستهلاك القسري، والتفاعلات السطحية. فالفرد يعيش بشكل مجزأ ومقسم بين دور المنتج ودور المستهلك، ويفقد وحدة وشمولية وجوده.

* **البيروقراطية المنظمة للاستهلاك:** حيث يرى لوفيفر أن المجتمع الحديث يفرض سيطرة بيروقراطية على كل جوانب الحياة، ليس فقط في العمل والإنتاج، بل حتى في أوقات الفراغ والاستهلاك. إذ يتم تنظيم حياة الفرد اليومية من قبل قوى خارجية: الإعلانات،

وجداول العمل، والنقل، وأنظمة السكن. فتنحول الأنشطة اليومية (مثل الذهاب إلى العمل، والتسوق، والترفيه) إلى عمليات منظمة وموحدة، الهدف منها إعادة إنتاج النظام الرأسمالي.

* **اللحظات:** هذا المفهوم هو البديل النقدي الذي يقترحه لوفيفر لمواجهة رتابة واغتراب الحياة اليومية. فاللحظات هي فترات قصيرة ومكثفة تنجح في كسر الروتين واستعادة الشمولية والواقعية للإنسان. أي اللحظات التي يشعر فيها الفرد بالإثبات العاطفي والفلسفي، ويعيش التجربة في حاضرها الكامل. يرى لوفيفر أن الفن، والحب، واللعب، والاحتفالات، هي أمثلة لهذه اللحظات التي تمنح الحياة اليومية جودة وشاعرية، وبالتالي تكشف عن الإمكانية الكامنة للعيش غير المُستلب.

* **الحق في المدينة:** يتجاوز الحق في المدينة مفهوم الحق في الوصول (Access) إلى الخدمات أو السكن، ليصبح الحق في التملك الجماعي وإعادة تشكيل الفضاء والاستحواذ عليه. هذا يعني أن سكان المدينة، كـ مستخدمين للفضاء، يجب أن يكونوا الجهة الرئيسية التي تحدد شكل ووظيفة البيئة الحضرية. معنى ذلك أن الحق في المدينة هو، في جوهره، الدعوة إلى إعادة تأسيس الوحدة الممزقة للحياة اليومية في المدينة. بدلاً من أن يكون الفرد مجرد متلقٍ سلبي لمنتجات التخطيط الرأسمالي (السكن، العمل، الاستهلاك)، يجب أن يصبح مشاركاً فعالاً وإبداعياً في تشكيل بيئته الحضرية. إنه حق في الاحتفال، واللعب، ورفض التنازل عن هذه الجوانب الإنسانية لصالح رتابة الحياة المُبرمجة بيروقراطياً. ومن الأمثلة على ذلك:

_ الكتابة على الجدران (الغرافيتي): وهي محاولة لتأكيد الوجود ونشر رسائل غير رسمية في فضاءات عامة تسيطر عليها عادةً الإعلانات واللافتات الرسمية (التعبير عن القيمة التبادلية). بمعنى أنها تمثل استعادة رمزية لجزء من الجدار العام من الرقابة الرسمية والمنطق التجاري.

_ تحويل الساحة العامة لمكان لعب: فالساحة العامة مصممة عادةً لوظائف محددة (مثل المشي، أو الجلوس). وعندما يعيد الشباب تعريف هذه الساحة لاستخدامها في نشاط غير منتج (اللعب والتسلية)، فهم يمارسون الاستيلاء المؤقت على الفضاء ويفرضون عليه قيمة استعمالية جديدة تتعارض مع القيمة الوظيفية المفروضة. هذا يمثل تحريراً لحظياً للفضاء الحضري من قيود الروتين والمنطق البيروقراطي.

4/ إرفينغ غوفمان والمدينة كخشبة مسرح للحياة اليومية:

هنا نستعير منظور "إرفينغ غوفمان" ومنهجه الدراماتورجي الذي يتيح لنا تحليلاً دقيقاً ومتبصراً للتفاعلات اليومية في الفضاءات الحضرية. فالمدينة الكبرى هي المسرح المثالي لتطبيق هذا النموذج بسبب كثافة وتنوع التفاعلات العابرة وغير الشخصية. كل مكان عام هو خشبة مسرح محتملة: الشوارع المزدهمة، ومحطات الحافلات والقطار والمترو، والحدائق العامة، والمتاجر.. الخ. في هذه الفضاءات، يكون الأفراد في حالة "أداء دائم". حيث يقومون بقراءة إشارات بعضهم البعض بسرعة فائقة (لغة الجسد، الملابس، سرعة المشي) لتحديد الأدوار المتوقعة منهم في هذا التفاعل القصير.

ولتحليل الحياة اليومية في المدينة، يمكن الاعتماد على عدة مفاهيم قدمها غوفمان في هذا الصدد:

* **الواجهة الأمامية (Front Stage):** هي المساحة التي يُتوقع فيها من الفرد أن يلعب دوره الرسمي ويحافظ على الواجهة التي يختار تقديمها في الفضاءات العامة للمدينة المهيكلية اجتماعياً (مكاتب العمل، والمقاهي، والمطاعم، ومحلات التسوق، وحتى الشوارع).

* **الواجهة الخلفية (Back Stage):** هي المساحة التي تكون بعيدة عن أنظار الجمهور، حيث يمكن للممثل أن يسقط قناعه، ويتخلص من متطلبات الدور، ويسترخي. مثلاً في المنزل الخاص، أو المطبخ الخاص بالمطعم، أو غرفة استراحة الموظفين. هنا يتم الإعداد للأداء التالي والاسترخاء من الأداء السابق. حيث التفاعلات تكون غير رسمية، وعاطفية، ويمكن فيها انتقاد الجمهور أو الأدوار المؤداة.

* **إدارة الانطباع:** ويشمل ما يلي

الإعداد: البيئة المادية (مثل المكتب المرتب، والسيارة الفاخرة).

المظهر: الملابس، والنظافة، والإشارات المرئية للوضع الاجتماعي أو المهني.

الأسلوب: طريقة الكلام، ونبرة الصوت، والتعبير عن الثقة أو الاحترام.

التنوع الهائل في المدينة يسمح بوجود عدد لا نهائي من فرق الأداء (Performance Teams) والجماهير، مما يجعل إدارة الانطباع عملية معقدة ودائمة، ومن الأمثلة على ذلك المقاهي والمطاعم كفرق أداء، حيث الزبائن يؤدون دور "الزبون الودود"، أو "الزبون المتعجل"، أو "الزبون الهام". والنوادل (الممثلون): يعملون كـ "فريق أداء" موحد لتقديم خدمة سلسلة وفعالة. وأي "هفوة" في الأداء (مثل تأخر الطلب أو خطأ في الحساب) تهدد مصداقية العرض وتتطلب من الفريق القيام بـ "عمل تعويضي" لإعادة إدارة الانطباع.

* **التجاهل المدني (Civil Inattention):** هذا مفهوم مهم، طرحه غوفمان ليفسر جوهر الحياة اليومية في المدن. فعندما تمر بشخص غريب في الشارع، وتلتقي أعينكما لبضع ثواني (للاعترااف بوجوده)، ثم تحول نظرك بعيداً فوراً. لنقول له بهذا التجاهل المدني: "أنا أراك، لكني لا أنوي التطفل عليك أو تهديك". هذا الطقس اليومي البسيط هو ما يجعل الحياة في المدن الكبرى ممكنة دون صراعات مستمرة.

المحاضرة التاسعة/ الثقافة والحياة اليومية

1/ الثقافة كبناء اجتماعي:

الثقافة كبناء اجتماعي، تعني أنها ليست شيئاً ثابتاً، بل هي نتاج تفاعلات الأفراد اليومية، وقيم ومعاني يبتكرونها ويتوافقون عليها لتفسير عالمهم، وتصبح "حقيقة" متفق عليها وتُشكّل هوياتهم وتصرفاتهم عبر اللغة والممارسات والطقوس اليومية، مما يعمل على ترسيخها في النظام الاجتماعي فيُعاد إنتاجها باستمرار في تفاصيل الحياة اليومية. جوهر هذا المنظور يكمن في إدراك الثقافة كدينامية مستمرة تتبع من التفاعلات المايكرو-سوسيولوجية اليومية، إذ هي ليست مُعطى، بل هي إنجاز (Achievement) يتجدد باستمرار.

إنّ مقارنة الثقافة من منظور البناء الاجتماعي للواقع، حسب الرائدان في علم الاجتماع الفينومينولوجي "بيتر بيرجر وتوماس لوكان"، تُشكّل قطيعة إبستمولوجية مع التصورات الجوهرانية للثقافة. فالثقافة، في هذا الإطار، ليست كياناً ميتافيزيقياً ثابتاً

أو مجموعة موروثية من التقاليد الجامدة، بل هي مُنتج دياكتيكي مستمر للتفاعلات البشرية، يتم بموجبه بناء الثقافة ثم تأسيسها ثم إعادة إنتاجها.

أ. بناء الثقافة (Externalization): هي اللحظة التي يُلقى فيها الأفراد بمعانيهم وأفكارهم وسلوكياتهم على العالم الخارجي، في مواجهة الفوضى أو اللامعنى، حيث يقوم الإنسان ببناء نظام دلالي لعالمه المعيش.

ب. تأسيس الثقافة (Objectivation/Institutionalization): عندما يتم تكرار هذه المعاني والسلوكيات من قبل مجموعات واسعة من الناس وتنتقل عبر الأجيال، فإنها تكتسب صفة الموضوعية وتظهر كـ "حقائق" مستقلة عن الذين اخترعوها في الأصل. هذا هو جوهر التأسيس المؤسسي للثقافة

ج. إعادة إنتاج الثقافة (Internalization): هي المرحلة التي يستوعب فيها الفرد هذا الواقع الثقافي المُشَيِّأ (الموضوعي) في بنيته النفسية (الوعي)، ويصبح جزءاً من هويته ونظرته للعالم، وذلك عبر عملية التنشئة الاجتماعية، فيعيد إنتاج هذه الثقافة التي تشربها في طوقسه وتفاعلاته اليومية.

2/ الثقافة كخريطة للتفاعل الاجتماعي:

في سوسيولوجيا الحياة اليومية، لا تُفهم الثقافة بوصفها فناً أو آداباً، بل بوصفها "تظاماً من المعاني" و"مخزوناً من القواعد" التي نستخدمها لتفسير سلوك الآخرين وتوجيه سلوكنا. فهي الأداة التي تمنح العالم طابعه المنظم والقابل للتوقع. وسنناقش هنا كيف تُشكل الثقافة البنية التحتية غير المرئية التي تجعل التفاعل الاجتماعي اليومي ممكناً، وكيف تتحول الرموز والمعاني المشتركة إلى أفعال يومية روتينية.

أ/ من منظور الفينومينولوجيا الاجتماعية عند ألفريد شوتز: يرى شوتز أن العالم الاجتماعي ليس موضوعاً خارجياً، بل هو عالم "مبني" من خلال وعي الأفراد. والثقافة هنا هي المادة الخام لهذا الوعي.

_ الذاتية المشتركة أو توافق الذات (Intersubjectivity): يفترض شوتز أننا لا نعيش في جزر معزولة، بل في عالم نتشاركه مع الآخرين. والثقافة تمنحنا "افتراض تماثل وجهات النظر"، أي أننا نثق بأن الآخر يرى العالم بنفس الطريقة التي نراه بها تقريباً، مما يسمح بالتواصل والتفاعل اليومي.

_ النماذج أو التصنيفات (Typifications): لكي نتعامل مع تعقيد العالم، نقوم بتصنيف الناس والأشياء وفق "أنماط ثقافية". فمثلاً نحن لا نتعامل مع "ساعي البريد" كفرد فريد بكل تفاصيل حياته، بل كـ "نموذج" يؤدي دوراً محدداً.

_ مخزون المعرفة (Stock of Knowledge): هو حزمة من المعلومات والمهارات الثقافية التي ورثناها عن مجتمعنا (عادات، لغة، وصفات للسلوك). هذا المخزون هو "المرجع" الذي نعود إليه لتفسير أي موقف جديد.

ب/ من منظور الإثنوميثودولوجيا عند هارولد غارفينكل: يركز غارفينكل على "الأساليب" التي يستخدمها الناس العاديون لجعل عالمهم يبدو عقلانياً ومنظماً، وهي:

_ الإشارية أو السياقية (Indexicality): تعني أن المعنى ليس ثابتاً، بل يعتمد كلياً على السياق الثقافي والاجتماعي. الكلمات والإشارات "تشير" إلى سياق أوسع لكي تُفهم.

_الانعكاسية (Reflexivity): تشير إلى أن الأفراد، أثناء وصفهم للواقع، يقومون في نفس الوقت بـ "خلقه". فحديثنا عن "النظام الاجتماعي" هو ما يجعله موجوداً ومستقراً. التفاعل يعيد إنتاج نفسه باستمرار. أي يعيد إنتاج السياقات الثقافية للتفاعل.

_المُحاسبة أو تأدية الحساب (Accountability): هي قدرة الأفراد على شرح وتبرير أفعالهم لجعلها "مفهومة" و"منطقية" للآخرين. فالثقافة توفر لنا القواعد التي نستخدمها لتقديم هذه التبريرات.

ج/ من منظور التفاعلية الرمزية (التفاعل الدرامي) عند إيرفينغ غوفمان: يستخدم غوفمان "المنظور الدراماتي" حيث يرى الحياة اليومية كمسرحية كبرى تقوم على:

_إدارة الانطباع: حيث الثقافة تفرض علينا معايير معينة للظهور. لذا، يحاول الأفراد التحكم في المعلومات التي يقدمونها عن أنفسهم ليتركوا انطباعاً معيناً يتوافق مع التوقعات الثقافية.

_المسرح الأمامي: المكان الذي نؤدي فيه أدوارنا أمام "الجمهور" ونلتزم فيه بالمعايير الثقافية المناسبة.

_المسرح الخلفي: حيث نتحرر من الأدوار الرسمية التي تفرضها التوقعات الثقافية.

_طقوس التفاعل: هي الأفعال الروتينية الصغيرة التي نحافظ من خلالها على "ماء الوجه" وعلى احترام الذات والآخر (طقوس ثقافية).

3/ الثقافة كـ "صندوق أدوات" (المقاربة البراغماتية للثقافة في الحياة اليومية):

قدمت عالمة الاجتماع الثقافي آن سويدلر (Ann Swidler) مقاربة براغماتية للثقافة تُعرف بـ "الثقافة في الممارسة"، في مقالها الشهير عام 1986، "الثقافة في الممارسة: الرموز والاستراتيجيات" (Culture in Action: Symbols and Strategies)، وهي نقطة تحول في دراسة الثقافة، حيث قدمت مقاربة براغماتية ترى الثقافة كـ "صندوق أدوات" (toolkit) من الرموز والاستراتيجيات التي يستخدمها الأفراد لاتخاذ القرارات وحل المشكلات في الحياة اليومية، بدلاً من كونها مجموعة متسقة وموحدة من القيم والمعتقدات. تُعد مقاربة "سويدلر" تحولاً جذرياً في سوسيولوجيا الثقافة، حيث تجاوزت الرؤية التقليدية التي كانت ترى الثقافة كمجموعة من القيم التي تملي على الناس غاياتهم، لتطرح بدلاً من ذلك نموذجاً عملياً يركز على "كيفية" ممارسة الثقافة لا "لماذا" نمارسها. فيما يلي شرح مفصل لهذه المقاربة ودورها في فهم الحياة اليومية:

أ/ الثقافة كـ "صندوق أدوات": تجادل سويدلر بأن الثقافة تشبه "حقيبة العدة" أو "صندوق الأدوات". هذا الصندوق يحتوي على رموز، وقصص، وطقوس، ورؤى للعالم. وحسب سويدلر الأفراد ليسوا "مُسيرين" من قبل قيمهم الثقافية، بل هم "مستخدمون" نشطون لها. حيث يختارون "الأداة" الثقافية المناسبة للموقف الذي يواجهونه في حياتهم اليومية. فبدلاً من القول بأن "الثقافة تحدد الغايات"، تقول سويدلر إن الثقافة توفر "استراتيجيات الفعل والممارسة" التي تسمح للناس بحل مشكلاتهم اليومية.

ب/ الثقافة في الفعل والممارسة: تفرق سويدلر بين دور الثقافة في نوعين من الفترات الزمنية:

_في الفترات المستقرة: تكون الثقافة هنا "كامنة" وغير مرئية. حيث نستخدم الأدوات الثقافية بشكل روتيني وتلقائي (مثل عادات الأكل أو التحية). فالثقافة هنا تدعم "أنماط الفعل" القائمة وتجعلها تبدو طبيعية.

في الفترات غير المستقرة: مثل فترات الثورات، والهجرة، أو الأوبئة. وهنا تبرز الثقافة كعنصر صريح ومباشر؛ حيث يلجأ الناس إلى "صندوق الأدوات" لاختيار نماذج سلوكية جديدة تساعدهم على إعادة بناء حياتهم وتنظيم واقعهم الجديد.

ج/ دور الثقافة في الحياة اليومية حسب سويدلر: يتجلى دور الثقافة في الحياة اليومية من خلال ثلاث نقاط أساسية:

* بناء استراتيجيات الفعل أو الممارسة: الحياة اليومية هي سلسلة من التحديات التي تتطلب "مهارات ثقافية" معينة، حيث توفر لنا الطرق الثقافية المتاحة استراتيجيات للتعامل مع هذه التحديات. مثال: الشخص الذي ينتمي لثقافة فرعية معينة قد يستخدم لغة جسد ولهجة معينة (أدوات) لفرض احترامه في الشارع، بينما يستخدم أدوات مختلفة (لغة رسمية) في بيئة العمل.

* التبرير اللاحق: ترى سويدلر أننا غالباً ما نتصرف بناءً على ما تسمح به أدواتنا الثقافية، ثم نستخدم "القيم" لاحقاً لتبرير ما فعلناه. فالقيمة هنا ليست المحرك، بل هي "الغلاف" الذي نغلف به أفعالنا لتبدو منطقية أمام الآخرين.

* الكفاءة والمهارة الثقافية: الحياة اليومية تتطلب كفاءة في استخدام "الأدوات الثقافية". فالفرد الناجح اجتماعياً هو من يمتلك "حقيبة" متنوعة من الموارد الثقافية ويجيد اختيار الأداة المناسبة للسياق المناسب.